الأصبهـانـــي

الأصبهـانـــي

مجموعة قصصيـة

محمـــود أبـو بكـــر

الأصبهـانـــي

مجمـوعـة قصصيـــة

اسم الكاتب: محمـود أبوبكـر
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٩٩٨ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

(الأصبهاني)

الخير والشر ظبيان توأمان من بطن غزالة برية، لا أحد يدري أيهما كان له السبق، كلاهما يدعي أنه أتى أولًا، ولكني أعلم بيقين تام أنهما جاءا معا وسيرحلان معا، وسيبقى العدم دائمًا ما يلوح لي ذكرى مشوّشة، لصبيٍّ صغيرٍ يعدو بكل ما أوتي من قوة، يسابق الثعالب والعصافير والخيول، يحاول أن يصل إلى الحد الفاصل بين السماء والأرض، أن يبلغ مغرب الشمس يعدو... ويعدو حتى يسقط لاهثًا ويظل الأفق بعيدا يحاول الوقوف على قدميه المرهقتين، يمد يده إلى تلك الجمرة البرتقالية محاولًا التشبث بخيوط النور الباهتة، لكنها تنساب من بين يده تهوي في عين حَمِئةٍ يخيل إليه أنه يرى فارسًا متشحًا بالسواد، يجول بفرسه ويهوي بسيفه على الهامات؛ فتسقط صاغرة فيعلو صهيل فرسه ويختفي مع آخر شعاع ضوء.. أركض بفرسي عبر تلك اللوحة السرمدية أشق الوديان و أقطع الفيافي، وأطارد الوعد والمصير.. صوت الإمام (إبراهيم) يتجسد صورا أمام عيني!

- يا (أبا مسلم).. أنت منا آل البيت، أنت سيفنا المسلط على رقاب (بني أمية)!

وجهي كان جامدًا كالصخر، لا تبدو عليه أثر كلماته، ولكن تلك العينان النافذتان رأت ذلك الجحيم المستعر بداخلي، دائما ما يجيد قراءتي ومعرفة مكنون صدري. أعرف أنني لست (سلمان الفارسي) وليس هو (النبي) ﷺ

ولكن طريقنا واحد.. كلانا يبغي الخلافة والملك ولن يتم له الأمر إلا بي.. و أنا لن أبلغ ما أريد إلا بنسبه ومن خلال دعوته.. هو فرصتي ولن أضيّعها!

– أنت من آل البيت!

أرى تأفف أخاه (أبوجعفر) وحديثه الصامت: كيف لهذا الأعجمي.. هذا العبد... مولى (أبي موسى السراج) أن يكون قائدا لدعوتنا؟!

ولكني لا أبالي لا بسخط (أبي جعفر) ولا تعجب أخيه (العباس).

فأنا من يصنع الأحداث ويرسم الصور، ويحرك البيادق على رقعة الشطرنج.. هذا الأمر أتجهز له منذ زمن بعيد وأعد له العدة حتى إذا جاءت الفرصة اقتنصتها فأنا الاختيار الوحيد.. فأنا حفيد الأكاسرة.. و أين أنتم من الأكاسرة؟... كنتم أعرابا.. حفاة.. جفاة... أجلافا.. ولولا الإسلام ومنته عليكم لكنتم ما تزالون في الصحراء تعيشون في بداوة وجدب، وتقتلون أولادكم من إملاق.. أنا من سيحطّم هذه الأصنام الأموية العربية وسأطأ هذا الصلف والغرور العربي بحافر فرسي.. سأقتلكم وأمزقكم شرَّ ممزَّق ثم أطارد أرواحكم وأحرقها.. أتحسس تلك الرقعة التي تأمر نقباء الدعوة بخراسان بالانصياع لأمري:

– اقتل من شككتَ في أمره ومن كان في أمره شبهة.. ومن وقع في نفسك منه شيء وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانًا عربيًا فافعل.. فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله!

أبتسم ساخرًا وأحدث نفسي قائلا:

- لا تقلق، سيدي فأنا لست في حاجة إلى وصية فلي ثأر قديم وجرح غائر.. فكم من إهانة نالتني من عربي حقيرٍ محقّر ليس له شأن ولا وزن، إلا أنه عربي يفخر بنسبه وقبيلته وعرقه الأصيل!

في طريقي إلى (خراسان) أراه طفلا صغيرا يلهو على تلٍّ قريب، يبتسم لي أتجاهله فيرفع صوته ينادي:

- أيها (الأصبهاني)!

لا ألتف إليه.

يقول بسخرية:

- حفيد الأكاسرة!

أنظر إليه بغضبٍ قائلا:

- اسمي (أبو مسلم).
- هل تغيير كنيتك يغير الحقيقة؟
- أي حقيقة؟!
- إنك لست عربيًّا.
- الوقت كفيل بتغيير كل شيء، سأتزوج من (آل العباس) و أنتسب إليهم.

يضحك قائلا:

- يا لك من حالم.. احذر نفسك (أبا مسلم) فهي العدو الأكبر.
- أنا أعلم بنفسي منك.

- لا تغتر أيها (الأصبهاني) إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا، كثر هم من ضحوا بكل شيء، وباعوا أنفسهم للشيطان وفي النهاية صاروا أجداثًا بالية، هباء منثورا!
- انتظروسترى أثري وفعلي!
- سأنتظر، أنا لا أملك إلا الوقت.

أسمع عواء ذئب.. يختفي محدثي وكأنه لم يكن!

****

قامت الدولة وشاع ذكري.. أنا الآن ملك (خراسان) الكل يهابني ويركع تحت أقدامي التي داست أعناق الرجال، وطحنت جماجمهم.. مات (العباس السفاح) وتولى (أبو جعفر المنصور) وها أنا في قصره أمام عرشه..

يباغتني بسؤال قائلا:

- لماذا قتلت سليمان بن كثير، و إبراهيم بن ميمون، وفلانا وفلانا؟
- لأنهم عصوني وخالفوا أمري.
- خالفوا أمرك؟! وهل لك من الأمر شيء؟، إن غرورك وكبرك صورا لك أنك صانع دولتنا.. ويلك! والله لو قامت أَمَةٌ سوداء بالدعوة لنا، لبايعنا الناس.

توجستُ خيفة من حديثه وأصابني الفزع، عندما رأيت ذاك الطفل ينظرلي من خلف العرش بابتسامة ساخرة قائلا:

- حان الموعد (أبا مسلم)!

المنصور:

- والله لأقتلنك أيها الزنديق!

أبكي مستعطفا:

- استبقني لأعدائك!
- وأي عدولي أعدي منك؟!

وأكمل ساخرا:

- "لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"!

ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى؛ فخرج أربعة فرسان أشهروا السيوف،

وشعرت بطعم الدم في فمي!

هــلاوس

ما زلت أقف عند الحد الفاصل بين النوم واليقظة، صداع قاتل يجتاح رأسي.. مطارقُ عملاقةٌ تدق بلا رحمة، مشاهد ضبابية، صور متتابعة، شريط سينمائي يمر أمامي لوجوه تبدو مألوفة، ووجوه لا أعرفها، أو ربما أعرفها، وجوهٌ تاهت في دروب عقلي الخفية، وجه عجوز صامت يدخن غليونه، طفلةٌ صغيرة تنظر ببراءة، وبيدها دميتها، مهرجٌ يبكي قليلا ثم يضحك بهستيريا، فراشةٌ ترفرف بجناحيها.. أتذكر أغنية تقول: أثر الفراشة لا يرى، أثر الفراشة لا يزول، هو جاذبية غامض، يستدرج المعنى، ويرحل حين يتّضح السبيل، ترفرف الفراشة بجناحيها، أرى العجوز يمسك بدميةِ الطفلة، والطفلة تجلس حزينةً أمام شاهد قبر، والمهرج ينتحر على عمود إنارة انطفأ نوره، كلّ شيء لم يكن مفهومًا حتى ظهرت هي، و اتضح السبيل، ظهرت كأجمل شيء، كحدث استثنائي، عينان سوداوان، ووجه تغار منه الملائكة إذا كان لها أن تغار، تبتسم ابتسامةً يتقاطر منها السكر، تقول بصوت عذب: أحبك، ثم فجأة، تذوب من أمامي كشمعة، كجناح فراشةٍ مسه النار فاختفى، تلاشت وكأنها لم تكن، يتغير المشهد، ما زال العبث مستمرًا، أسير في غابة، أشعّة الضوء تحاول جاهدة الإفلات من أغصانها المتشابكة، الظلالُ والخيالات هي المسيطرة على المشهد، غرابٌ ينعِقُ على فرع شجرة يابس، نذير شؤم، الحيات والأفاعي تزحف حولي وصوت فحيحها يصمّ أذني،

الأغرب أنني أعلم أنه حُلم ومع ذلك أشعر بالخوف، أقترب من شجرة ضخمةٍ يبدو أن عمرها أكثر من ألف عام، كأنها أول شجرة نبتتْ على هذه الأرض، يحيط بها سبعةُ رجال يرتدون زيًّا كهنوتيًّا أسود اللون، يتلون صلاة، من المؤكد أن إلههم ليس خيرًا على الإطلاق، لما اقتربت؛ ابتسم أحدهم قائلا:

– لقد جاء المخلّص!

– مخلّص؟! لا أنتم مخطئون.. لست مخلصا لأحد.

فجأة انقض عليّ ثلاثة منهم، حاولت المقاومة والصراخ، أنا لست من تعتقدون، ما يزالون يتمتمون بأناشيد الموت تلك، أحاول المقاومة، ولكنني لا أستطع مقاومتهم، قيّدوني في جذع الشجرة الضخم، وبدأ كبيرهم يتمتم، ويرتّل بلغة غير مفهومة، و أنا أحاول فك القيد، ويقترب مني، ويبتسم، فأرى في عينيه الظلام، يخرج خنجرًا من طيات ثيابه، وبسرعة خاطفة يغرسه في قلبي، يغرقني الدم، ويسيل على الأرض بغزارة.

أصحو فزِعًا، أنا على الفراش ومروحة السقف تدور في بطء.. هناك أنابيب تحقن جسدي بسائل ما، وأسلاك متصلةٌ بصدري، أنا في مستشفى.. ماذا حدث لي؟ لماذا لا أتذكر شيئا؟ هل فقدت الذاكرة؟ ما اسمي؟ لا أتذكر سوى تلك الهلاوس، ووجوها ضبابية إلا وجهها هو الوحيد الواضح النقي!

_ أرى أن فارسنا الوسيم قد عاد. التفتُّ ناحية الباب لأرى ممرضة تبتسم لي.. لماذا لا تبدو مريحة؟

أنطق بصعوبة:

– أين أنا؟

تقترب من المحلول المعلق، ملامحها صارمة جامدة رغم الابتسامة التي لا تفارق شفتيها.. عيناها زرقاوان وشعرها أشقر قصير.. تبدو مخيفة وهي تغرس سن المحقن في المحلول... أرجو ألا يكون مادة سامة!

- أنت في مستشفى، جئتنا منذ ثلاثة أيام.

- ماذا حدث؟

- حادث سيارة!

أحاول أن أتذكر أي شيء.

- أنا لا أتذكر ما حدث!

- لا تخف قد يكون فقدان ذاكرة مؤقتا بسبب اصطدام رأسك في الحادثة، وسيأتي الدكتور (مجدى) ليرى حالتك ويطمئنك!

- ألا تعرفين من أنا؟

- لا، لم نجد معك أي إثبات لشخصيتك!

- هل كان معي أحد؟

- نعم، فتاة في أواخر العشرينيات، ولكن للاسف لم تنجُ.. ماتت عند وصولها.

- هل تتذكرها؟

صوت الممرضة يبتعد ويصبح أبطأ.. أشعر بالخدر يتسلل إلى جسدي

- ماذا وضعت في المحلول؟

تقترب وصوتها يأتي من بعيد:

– إنه مهدئ.

ترمقنى بنظرة مبهمة وابتسامة غامضة.. كانت ودودة أكثر من اللازم ودائما ما كان عندي فوبيا من هؤلاء الأشخاص.

****

فى المستشفى صمتٌ رهيب، أرفع صوتي، أنادي على تلك الممرضة النازية.. لا أحد يجيب!

صمتٌ مخيف.. كيف يكون هذا السكون؟ أليس هناك مرضى آخرون وأطباء وممرضات؟

أحاول أن أغادر السرير.. أجد صعوبة بالغة..

- ما زلتَ تحتاج إلى الراحة. تطل على بوجهها المبتسم المخيف.

- لماذا لا أسمع أصواتًا وحركة في المستشفى وكأنه لا يوجد إلا أنا؟

تطلق ضحكتها قائلة:

- إننا في المستشفى نحب الهدوء التام، وهناك عقوبات صارمة لمن يحدث أي إزعاج.. تلوح بإصبعها.. حتى ولو كان مريضًا..

ثم تكمل حديثها قائلة:

- الدكتور (مجدي) سيصل بعد دقائق ليرى حالتك، ألم تتذكر أي شيء بعد؟

- لا.

- قد يكون مفيدًا أحيانا أن ينسى الإنسان حياته ويبدأ من جديد.. إنني أحسدك.

تضحك ضحكتها المخيفة وتكمل:

– قد تكون قاتلا متسلسلا يبحث عن ذوات الشعر الأحمر!

أحدث نفسي قائلا:

– لو كنت كذلك ستكونين أنت أول الضحايا.. وسأحتفظ بعينيك في قارورة زجاجية.

تكمل:

- وقد تكون بائسًا في حياتك، لا معنى ولا قيمة لحياتك وفقدان ذاكرتك ومحو حياتك قد تكون نعمة لا تتخيلها.

- قاتل.. طباخ.. أريد أن أستعيد ذاكرتي.

تضحك:

- وقد تكون الاثنين معًا.. طباخ وقاتل!

أقول بسخرية:

- أنت تتمتعين بحس فكاهيٍّ عالٍ!

تقترب مني قائلة:

- وهناك أمور أخرى لا تعلمها.

يدخل رجل خمسينيّ، أشيب الشعر يرتدى نظارة طبية، وعينان تطلان من خلف النظارة، تعدك بأنها تعرف كل شيء.. متوسط الطول ذو جبهة عريضة تنم عن ذكاء حاد!

تحدثه قائلة: دكتور (مجدي) إننا ننتظرك!

يبتسم الدكتور (مجدي) قائلا: أهلا بمريضنا الفاقد للذاكرة.

يجلس على كرسيّ قريب، ويوجه حديثه إلى الممرضة: أرجوك يا (مرفت) فنجان القهوة المعتاد.

تذهب هي وتتركني مع الدكتور (مجدي).

أقول: لماذا لا أتذكر أي شيء يا دكتور؟

يقول: أكيد من الحادثة وارتطام رأسك، قد يسبب فقدان مؤقت للذاكرة.. هل أنت لا تتذكر أي شيء حتى لو كان في أحلامك.. ألا تراودك أحلام؟ هل ترى شيئا؟

- مجرد هلاوس.. أضغاث أحلام.

- ألا يوجد وجه في الحلم تتذكره.. وجه مألوف؟

- نعم هناك وجه فتاة جميلة أشعر أنني أعرفها بل أعتقد أنني أحبها.

- حدثني أكثر عن أحلامك.

- غابةٌ وكهنةٌ وساحرةٌ ما.. أشياء من هذا القبيل، مجرد تخاريف.

- الأحلام بوابة قد نستطيع من خلالها فهم من أنت.. من تكون.. نعرف مخاوفك، ما تحب وما تكره، فنحن كما يقولون: قد صنعنا من مادة الأحلام. يبتسم قائلا: ثم ما أدراك أن ما تراه هو هلاوس وتخاريف أليس من الممكن أن يكون هو الحقيقة.. و أنا و أنت الآن مجرد وهمٍ، حُلمٍ آخر لم تستيقظ منه بعد.

أشعر بصداع رهيب.. أسمع صوته يتضخم ويصبح أبطأ.. أُغلق عيني.. يتلاشى كل شيء أمامي.

المشهد يتضح الآن.. أنا في مقهى ما تجلس أمامي تلك الفتاة التي أراها في أحلامي.. ترتجف وهي ترتشف رشفات من كوب أمامها، ماذا يحدث لي؟ أين ذهب الدكتور والمستشفى؟ هل أصبحت مجنونًا؟ يبدو الاضطراب على وجهي.. تقول: هل أنت بخير؟

أقول والصداع يقتلني: من أنت؟

- ماذا أصابك يا (شريف)؟

- أرجوك من أنت؟

- أنا خطيبتك (مي) ماذا بك هل أنت مريض؟

أتساءل:

- و أنا اسمي (شريف)؟

تنزعج قائلة:

- هل هي مزحة سخيفة أم ماذا؟!

نظراتي تجول بالمكان.. مقهي صغير ورواده قلائل، نغمات هادئة وضوء باهت يرسل في جسدك الخدر.

(مي):

- (شريف) ما بك؟

في تلك اللحظة يجتاح رأسي ألم مرعب، وأرى تاريخ حياتي يمر أمامي طفولتي وصباي وشبابي، وذكرياتي في الجامعة كلية الهندسة وحبي لـ(مي) ولقاءاتنا وأحلامنا لقد تذكرت كل شيء!

صوت (مي) يصرخ:

– لا بد أن نذهب لطبيب؛ يبدو عليك المرض.

أعود لطبيعتي أحاول أن أبتسم قائلا:

- يبدو أنك تخافين علي.. أنا الآن أفضل فنجان قهوة سيعيد لي حيويتي.

أشرب القهوة على عجل على خلاف رأي الشاعر.. نغادر المقهى وننتظر تاكسي ليقلنا.. اصطدمت عيني بعيني الدكتور (مجدي) وهو يسير بجانب (مرفت) الممرضة النازية.

ابتسم لي ابتسامة غامضة وهو يقترب مني وكأني سمعته يقول: أراك في حياة أخرى.

الوالي والوزير

في داخل القصر يجلس الوالي، وهو يتحسس بطنه بعد أن فرغ من أكل جِدي مشوي، اتبعه بأنواع شتى من الشراب، والفواكه الطازجة، كان يجلس مسترخيًا حتى دخل عليه وزيره، ومدبر أمور دولته.

- السلام على ولي نعمتنا خير أمراء الأرض.
- وعليك السلام يا وزيرنا العزيز، لقد أرسلت إليك لنكمل حديثنا المهم الذي بدأناه بالأمس.
- نعم سيدي الأمير، لقد توقفنا في حديثنا السابق عند الجواري السنديات.

اعتدل الوالي في جلسته قائلا:

- نعم السنديات.
- السنديات يا مولاي يتميزن بالخصر النحيل، والشعر الطويل، ورقة الطبع، أما الأمةُ البربرية فلا تبارى في حسن الإنتاج، والأمة التركية بيضاء البشَرة على حظٍ عظيم من الجمال، ولها عينان صغيرتان جذابتان.

قال الوالي في نشوة:

- والأمة الرومية؟!

- الأمة الرومية بيضاء البشَرة في حمرة، ناعمة الشعر، زرقاء العينين مستعدة لأي شيء.

يضحك الوالي في جزل قائلا:

- أحبهن روميات!

يدخل أحد الحراس في عجل مرتبكا.

الوزير: ماذا هناك أيها الحارس؟

يقول الحارس متلعثمًا:

- المغول يا سيدي يجتاحون المدينة.

ينتفض الوالي وترتعشُ يداه.. ينظر لوزيره أملا في النجاة..

يشير الوزير للحارس بالانصراف والاستعداد لتحصين القصر من الهجوم..

يقول الوزير:

- لا تقلق يا مولاي، الأمر بسيط وفجأة أخرج خنجرا مرصعًا بجوهرة حمراء ثمينة، و اقترب من الوالي الذي أصابه الرعب، وحاول أن يقف ولكن ثقل جسده منعه من الوقوف سريعًا.. يصرخ الوالي:

- يا حراس يا حراس!

ولكن الوزير لم يمهله وطعنه ثلاث طعنات نافذة لا أمل معها في النجاة.

رأس مروان الحمار تتحدث

أنا رأس (مروان بن محمد)، الملقب بمروان الحمار، ملك العرب وآخر خلفاء بني أمية، الشمس تلسع وجهي، والذباب ينهشني بلا رحمة، عيناي مفتوحتان تري جسدي الصريع الر اقد على الأرض، بلا حركة، بلا رأس، احتزّ الرأس رجلٌ نكرة لا أصل له ولا نسب من أهل الكوفة، كان يبيع الرمان في السوق، قصير، دميم، بعينيه حوَل، ور ائحة فمه لا تطاق، انضم لموسم الصيد.. صيد بني أمية، ولحظه السعيد وقعت يده على أكبر فريسةٍ أموية، طعن الجسد أولا ثم غرس فيه السيف حتى خرَّ الجسد صريعا، وبعدها احتز الرأس بلهفةِ ضبعٍ يأكل فريسته حية، ها هو يضعني داخل صندوق خشبي علي قطعة قماش من بلاد السند، كانت عيناي ترغب في البكاء على الملك الضائعِ ولكنها لم تستطع، ما زالت كلمات خادمي ترن في أذني وتصفعني على وجهي:

- يا أمير المؤمنين، من ترك القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر، وأخّر فعل اليوم لغد، حلَّ به أكثر من هذا. أغلق بائع الرمان الصندوق، وأغمضت عيني للأبد.

مخاوفي

هناك قائمة طويلة بمخاوفي منها المهرج "البلياتشو" كابوسي الأزلي بوجهه الملطَّخ بالأصباغ، وشعره البرتقالي وابتسامته المخيفة، كيف لهذا الكائن الفضائي أن يكون مضحكًا؟! الهمسات التي أسمعها ليلاً، القطط السوداء ذات العيون المحدّقة، الظلال التي منحت الحرية لتتحرك كيفما تشاء، أو عندما ترفع سماعة التليفون ولا تسمع سوى تنفس أحدهم، عرائس أختي الصغيرة الحليقة الرأس المنزوعة العين اليمنى، موسيقى برنامج العلم والإيمان، الجارة العجوز التي تعدت المائة، تجلسُ بجانب نافذتها تنتظرك لتلقي عليك بعضًا من تعاويذها السحرية القديمة، البيت المهجور في شارعنا الذي قتل صاحبه وما يزال شبحه يصرخ ليلا يستغيث ولا أحد يسمعه إلا أنا، ولكن أكثر الأشياء رعبًا هي أنني لم أعد أرى صورتي في المرآة!

أقسى عقاب

"سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الوعد منصفا".
(الإمام الشافعي)

ملامحه الوسيمة.. عيناه البريئتان.. تجعلك تشعر عند رؤيته بالشفقة والعطف فكيف لملاكٍ مثله أن يواجه تلك الغابة التي نعيش فيها؟ عرفته منذ سنةٍ تقريبًا فقد انتقل هو وعائلته للسكن بجانبنا، أتذكر أننا تقابلنا بالصدفة فاستقبلني بابتسامةٍ متألقة وصافحني دون تكلف وببساطة، كأنني أعرفه منذ زمن بعيد ولذلك لم يكن غريبًا أن يتسلل إلى نفسي بهذه السرعة المدهشة؛ فيصبح بالنسبة لي أصدق صديق!

سألني مرة سؤال لم أتوقعه قال:

- هل تحب؟

ارتبكت فقد باغتني سؤاله.

فضحك ومن بين ضحكاته قال:

- ولماذا كل هذا الارتباك؟ إنك لم ترتكب جريمة!

إنه لا يعلم أنني ما زلت من هؤلاء الرومانسيين الذين يدبّجون القصائد في جمال الحبيب، ويناجون القمر ويعتبرون ذكر الحبيب "تابو" شيئا مقدسا لا يصلح أن يكون مادة للحديث، ولهذا فأنا أختلف عن قيس الذي شهر بليلاه وجعل سيرتها على كل لسان، وحتى بعد أن تزوجت غيره وتركته يلف ويدور في الفيافي ويبقى "عباسية" قابل زوجها

فقال بكل بجاحة: بربك هل ضممت إليك ليلي قبيل صبح أو قبلت فاها؟... تصوروا، أخذني (عادل) من قيس وليلي قائلا:

– يبدو أنك غارق في الحب يا فتى حتى النخاع.

قلت وقد احمر وجهي، كأنني عذراء الربيع كما كانت تسمى نفسها حميدة في فيلم ابن حميدو:

– ليس إلى هذا الحد.. سأحكي لك وسأفضي لك بسري!

******

خائن... خائن.

إنه بروتس ومحمد بك أبو الدهب وخاير بك وبدران ودوريان جراي.. مضروبون في خلاط واحد.. فها هو الخائن تتم خطبته على (منى) حبيبتي التي لم أحب سواها، لقد طلبت منه المساعدة فكان كريمًا إلى حد لا يصدق وخطبها لنفسه.. يا له من وغد لا بد أن ينال ما يستحق!

******

يقولون: إنه من الأفضل أن يكون لك أصدقاء من الجحيم، أيضا لذلك بحثت حولي فلم أجد صديقًا واحدًا تنطبق عليه المواصفات التي اخترتها إلا (عبده كاراتيه) صديق أخي.. كثيرا ما رأيته في بيتنا ولم أهضمه قط، ولكن الأيام تثبت أنني في حاجة إلى تكوينه العضلي وركلاته وصفعاته.

رويت له ما حدث فقال بعض العبارات التي حفظها من مشاهدته للأفلام الأمريكية.. ترجمتها إنه سيذيقه أشد أنواع العذاب ويكرر جملة "Trust me" كنت سأختنق من هذا الأوفرولكن ما باليد حيلة!

وحدث ما وعد به (عبده كاراتيه) فبعد فاصل استعراضي من أساليب القتال الصينية واليابانية، حول وجه (عادل) إلي عجينة وبعد لحظات سريعة اختفى (كاراتيه) وتحول لدخان كثيف وذلك بأسلوب (النينجا) المميز فلم يره أحد. من يومها اعتقد أنه يواجه مشكلة عودته مرة أخرى، من الحالة الغازية للصلبة فكيف يتكثف ويتجمد في خطوة واحدة؟ دعنا من (عبده كاراتيه) ونعود إلى (الخائن) الذي عاد بعد ثلاثة أسابيع إلى الظهور مرة أخرى وسلاحي القادم هو (شمس) وهي ممثلة بارعة في جامعتنا تراها على خشبة المسرح، لا تعرفها فهي تتحول لشخص آخر، أقنعتها أن هناك دورا سيفجر الطاقات المكبوتة بداخلها؛ فوافقت وكتبت لها المشهد المشهور من فيلم (معبودة الجماهير) مع إضافة بعض صور الفوتوشوب تجمع بين (شمس) و(الخائن).. كان تمثيل (شمس) مقنعًا وكان تأثير ذلك على (منى) عظيمًا فقد ألقت خاتم الخطبة في وجه (الخائن) وأنا طبعًا لم أهدر تلك الفرصة فأرسلت له باقة ورد معها بطاقة كتب فيها: إلى صديقي (الخائن) العزيز:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة *** وليتنا لا نرى مما نرى أحدا

وبعدها بدأت أتقرب من (منى) بحذر وبعد عدة مصادفات مدبرة بدأت قصة حبنا والنهاية السعيدة.. أنني تزوجتها وأنجبت شيطانين صغيرين، وبعد فوات الأوان أدركت أن أقسى عقاب كان من الممكن أن يناله (ابن المحظوظة) هو أن يتزوج زوجتي! "يا لي من أحمق"!

فـرج

مات السلطان، فانتشر أمراء المماليك في القصر كالجراد، يتصايحون، ويتنازعون على الأحق بالحكم، فالسلطان كان عقيمًا لا ولد له، وكانت تتناثر بعض الأقاويل عن حبه للغلمان، ولكن دعنا لا نخوض في سيرته "اذكروا محاسن موتاكم" لقد ذهب وغادرنا إلي جهنم وبئس المصير، لعنة الله عليه فقد كان قاتلًا سفاكًا للدماء، ألم أقل لك: اترك سيرته. اقترب، واسمع لما يدور بين أمراء المماليك.

- أنا الأجدر بينكم بالحكم فأنا أعلم كل شيء عن تصريف أمور الدولة.
- لم يبق سوى أنت أيها الخصي، أتريد أن تصبح سلطانا؟ إنها إحدى علامات الساعة.

غادرت السيوف أغمادها، وكادت أن تراق الدماء لولا حكيمهم الذي قال:

- لماذا تريدون الحكم؟ فأكثر من جلس علي العرش كانت نهايته بشعة وموته محتما.
- قالوا: وما الحل؟
- الحل أن نأتي بأحدهم كستاريملك ولا يحكم، وكل منا يفعل ما يريد، وصمت برهة ثم أكمل:
- و أنا أعرف الشخص المراد.
- من هو؟

- (فرج بن محمد).
- (فرج) هذا شيخ اعتزل الحياة وتصوف وما له بالحكم وأمور الدولة.
- هذا هو ما نريد.
- هيا بنا نذهب إليه.

ولما عرضوا الأمر علي الشيخ (فرج) أخذ يبكي ويصرخ ويقول:

- إنها أمانة، و أنا لا أقدر على حملها، لا أستطيع.

وخلع عمامته وألقاها أرضا وأخذ ينتف لحيته ويضع التراب علي رأسه قائلاً:

- لقد حانت نهايتي.. لماذا تريدون قتلي؟
- كيف نقتلك و أنت ستصبح سلطانًا علينا.. لك واجب الطاعة وأمرك واجب النفاذ.
- هل تقسمون بأنكم لن تقتلوني؟
- نقسم.. إننا لن نقتلك ونكون في خدمتك.. عبيد إحسانك.

لملم الشيخ (فرج) أشياءه المبعثرة، ونفض التراب عن رأسه، وتقدم أمراء المماليك إلى القصر، ولما جلس (فرج بن محمد) على كرسي العرش، وذاق حلاوة السلطان، وتمرغ في نعيم الملك؛ قطف رؤوس المماليك وزيّن بها أسوار القصر!

هروب

سيبيعنا بأبخس ثمن، إنه نسل (يهوذا) وخلقته، فكيف نأمن لهذا الرجل؟، المسودة يبحثون عنا في كل مكان، ويعرضون المكافآت وجزيل العطاء لمن يرشد عنا، يقف أمامنا يخبرنا أنه ذاهبٌ إلى السوق لشراء بعض احتياجاتنا، أنفاسه الخبيثة تعكر الهواء حولنا، وعيناهُ الجاحظتان يطل من شرفتها الموت، لا بد أن نغادر، ما باليد حيلة، سيبيعنا حتما، تلك الذئاب السوداءُ تطاردُنا ولن تهدأ حتى تتذوق لحومنا، شياطين يهدمون ويحرقون كل ما هو (أموي)، إنهم ينبشون القبور يبحثون عن بقايا عظام أموية ليحرقوها.. ما هذا الكره الأعمى؟! ماذا صنعت أيدينا ليحق علينا غضب الله؟، هل هو غضب أم ابتلاء؟! أين أنت يا جدي لتدفع عنا ما نحن فيه من البلاء والذل؟، لا حرمة لدمائنا، وكأن قتلنا يقربهم من الجنة، أتسأل كيف لهذا الصرح الأموي أن ينهار بتلك السهولة؟ كيف نخَر فيه السوس فهوى كشهاب محترق، كنا كالثريا، تلمع قناديلُنا في الدجى فأطفأتها يد الأحداث، وبعد أن كانت تنحني لنا الجباه؛ صرنا كالدود في الأرض نختبئ تحت الأحجار والصخور، نفرُّ من أقدارنا كالعميان، أسمع دبيب الموت يقترب، أأظر إلى أخي الصغير، مات أبي قبل أن يرى أخي النور، فكنت أباه الذي علمه كل شيء، أول حرف، وأول رمية سهم، وأوّل ضربة سيف، نعدو بكل ما أوتينا من قوة، نسابق الموت، ونحن نعلم أننا نفر من القدر إلى القدر، يقتربون.

-سيقتلوننا يا (عبد الرحمن). أخي يصرخ خائفا.

- لا تخف.

يبدو أمامنا نهر الفرات، آمر أخي بالقفز في النهر، وبضربات أذرع مذعورة نسبح، أراهم يقفون كالشياطين على ضفة النهر ولا يحاولون نزول الماء وكأن الماء يُخيفهم

يقول كبيرهم: عودوا، ولكم الأمان، لقد عفا الأمير عنكم. كلماته تخرج من فمه كأنها فحيحُ أفعى رَقْطاء، الضفة الأخرى بعيدة ولكن الغرق أهونُ من أن أقع بين أيديهم.. ألتفت إلى أخي الصغير لأشجعه على المضيّ، لأجده يعود إليهم!

أصرخ:

عد يا (هشام).. عد.. سيقتلونك.. عد يا أخي.

أكاد أغرق، أواصل العوم، الحزنُ يعتصر قلبي بيدين لا تعرف الرحمة.

أصل إلى الضفة الأخرى، أرى أخي بين أيديهم.

يقول شيطانهم الأكبر: ألن تأتي لتنضم إلينا؟

يقول أخي وماء النهر يتقاطر من شعر رأسه: صدقهم يا (عبد الرحمن)... صدقهم

اصرخ: اتركوه... اتركوه.. إنه ما زال صغيرا!

يضحك كالشيطان: الموت لا يفرق بين صغير وكبير، ثم من يأتي إلينا لا نتركه.. بل نذبحه ومرَّرَ نصل سيفه على رقبة أخي المذهول ليسقط صريعًا وجسده ينتفض في صمت.

أستيقظ من النوم فزعا، أنا علي سريري... في قصري الكبير.. في قرطبة عاصمة الأندلس، أنا أمير الأندلس وما يزال ذلك الكابوس يقتلني كل يوم، أرى شبح أخي الصغير يقف بجانب النافذة؛ يرمقني بنظرة تقول: لماذا تركتني يا أخي؟ لماذا؟!

الغريب

قال لي جدي وهو يتذكر إحدى حكاياته: لقد هبط علينا فجأة، لم نعلم له أصلا، ولا نسبا، وكأنما نبتَ من العدم، كأنه جنيٌّ هرب من كتاب ألف ليلة وليلة، بقامته الضخمة، وطوله الفارع كمئذنة، إنه أخرُ سلالة قوم (عاد)، أما وجهه فكأنما قد من صخر به عينان زرقاوان نافذتان، تخترقانك كسيفٍ قاطعٍ وتلقي في قلبك الخوف، وبأنك ستعترف بكل ما تعلم وما لا تعلم، قالوا: إنه أحد قطاع الطرق التائبين، وقال أحدهم: إنه هو الذي قتل تسعةً وتسعين نفسا، وجاء إلينا ليكمل المائة أو المائتين. وقال آخر: إنه الخضر -عليه السلام- جاء يعلمنا شيئا من أمور الدين.. ثم يكمل سفره الدائم. استوطن تلك الزاوية في الحارة، وأصبح هو الإمام المسئول عن إقامة الصلوات، بعدما اختفى (عم وهدان)، الإمام السابق، ولم نجد له أثرا، ولكننا لم نهتم، ومع العهد الجديد وجدنا (جابر) -وهذا اسمه- بدأ يزور أغنياء الحي، أول زيارة كانت للحاج (عبد القادر العطار)، استقبله العطار بتَرحاب وقلق، فلماذا يزوره هذا الغريب؟ وماذا يريد؟ لم يدم اللقاء طويلًا خرج بعدها (جابر) بلا أي تعبير على وجهه، أما وجه الحاج (عبد القادر) فكان مصفرا، ويداه ترتعشان، بعدها بأيام احترقتْ دكانه، ولم يجرؤ على اتهام أحد، ولكننا كنا نعلم من فعلها، ولكن ألسنتنا لم تطاوعنا على قول الحقيقة، وتكررت زيارات (جابر) إلى ميسوري الحال بالحي، فكانوا يلبون رغباته ويطهرون أنفسهم، على حد تعبيره لهم بدفع المال إليه فهو سيوزعه

بالعدل على الفقراء، والمحتاجين، الشيء الغريب أن الفقراء كانوا يزدادون فقرا!

يتذكر جدي أن (جابر) صلى بهم مرة، وهو مخمور ولحن في قراءة الفاتحة، وقال: أنعمت عليكم. ولم يرده أحد. قال جدي: إنه أعاد الصلاة مرة أخرى عندما عاد إلى البيت، وهو يستغفر الله.. كانت أيام سوداء بلون هباب الفُرن! على حد تعبير جدي وفي يوم من الأيام اختفى (جابر) من الحي وكأنه لم يكن. البعض قال: إنه قتل وألقيت جثته في مكان ما. وقال البعض الأخر: إنه عاد إلى قُمْقُمه النحاسي فهو عفريت من الجن. سعل جدي وهو يكمل: نعم هو رحل ولكن بقي الخوف في أعماقنا جمرة متقدة!

الطريق

قال لي: مهمتي هي المحافظة على النظام، أن يسير الكل علي الطريق الذي قدر له ووفق المخطط المرسوم، أنا لا كيان لي، ولكن لي القدرة علي اتخاذ أي هيئة أريدها، فها أنا أمامك ببذلة رسمية أنيقة موضة الخمسينيات، متخذًا هيئة استيفان روستي! يضحك قائلا وهو يقلده قائلا: مدام تسمحي لى بالرقصة دي!

يأتي صوت فردوس محمد من العدم قائلة: حد حايشك يا أخويا ما ترقص.

يقول: كده، بس أروح أتحزم واجيلك. يكمل وأكتافه تهتز من الضحك: ممثل عبقري، هذا هو زمن الشر الجميل.

أقول: كيف يكون الشر جميلا؟

الشر نسبي ككل شيء في حياتنا، فمثلا شخص فقد حياته في حادثة (شر) ولكن قلبه ينقل في جسد آخر فيمنح الحياة لشخص كاد أن يموت (خير) هل الحادثة شر مطلق أو خير مطلق من وجهة نظرك؟ لم ينتظر إجابتي وقال: الأمور نسبية.

قلت:

_ أنت مقنع.

- إذن اتفقنا.

- اتفقنا على ماذا؟

- أن تمشي في الطريق المرسوم ولا تعاند وتتعب قلبي معاك.

- أعطني مهلة للتفكير.

- ليس هناك تفكير... أنا عندي شغل آخر غيرك.

- اطمئن ولا تشغل بالك سأفعل ما تريد.

- أخيرا!

تركني و انصرف وقد اتخذت قراري.. سآكل من الشجرة المحرمة.

وراء كل عظيم امرأة

الورقة أمامي بيضاء بل ناصعة البياض، وأحاول منذ ساعة أن أكتب أي شيء ولكن القلم عاجز أن يخط كلمة.. هل أفلستُ ولم يعد هناك شيء يمكن أن أكتبه؟ كل الأدباء العظام مروا بما أمر به من عدم وجود فكرة، وجلسوا يستعطفون القلم ويدللونه وأحيانا أخرى يلعنونه، دون جدوى دون أن يقطر حروفا، أو كلمات، إنها حالة من الملل التي دائما ما تصيبني.. فالملل عدوي وصديقي اللدود قال المتنبي: "من نكد الدنيا على المرء أن يجد عدواً ما من صداقته بد" سمعت أن الملل يجعل المرءَ يفكر جديا في الانتحار وبما أنني لست عندي الشجاعة الكافية للانتحار، فقد تزوجت وأصبحت مغفلًا آخر.. ولكنني بعد الزواج طبعاً بدأت تراودني كوابيس ليلا ونهارا، وجاءتني فكرة أن أكتب هذه الكوابيس كرواية وفعلا بدأ القلم يجري، كجواد عربي أصيل، وانتهيت من الرواية في حوالي ثلاثة شهور فقط ،وأعطيتها لجهة النشر والمفاجأة أن الرواية نفدت طبعتها الأولى في أيام معدودة، وطبعت ثانيا وثالثا ورابعا، وبدأت أصبح من الشخصيات المشهورة في المجتمع على أنني أشهر كاتب رعب في الوطن العربي، وبدأت تنهال عليّ عروض من جهات نشر مرموقة وأصبحت ضيفاً عزيزا لدى القنوات الفضائية، وبدأت الندوات تنعقد لمناقشة الظاهرة الجديدة في الوطن العربي، وهو أنا وفي إحدى الندوات سألني شابٌ في العشرين من عمره: ما السبب في هذا النجاح الهائل

الذي حققته؟ فقلت: وراء كل رجل عظيم امرأة.. إنها زوجتي هي التي دفعتني لأن أكون ما أنا عليه!

تصفيق حادٌّ وبدأت النساء تزرف الدموع.. فهذا رجل يعترف بفضل زوجته، وبدأت الجمعيات النسائية تعتبرني زعيمًا لها ومثلاً أعلى للرجل العصري الذي يجب أن يحتذيَ به جميع الرجال.. ابتسمت وأنا اقول في نفسي: آه لو يعلمون!

جفـاف

أحيانًا لا تجد ما تقوله فقد فرغ الكلام وجف حلقُك من سرد ما حدث، و أنت بعيد عنها.. لقد تحدثت عن الشوق والعشق والبعد والهجر والوصل والعيون السود والرموش والخدود والشعر الحرير، حتى أنك تحدثت عن معركة التل الكبير وموسم تزواج ذبابة الفاكهة، ولم يعد هناك ما يقال، أما هي فتجلس صامتة منتظرة أحلى كلام من عاشقٍ شفّه الوجد فأتى لينال بعضًا من رحيق الجنة ولكنني لم أعد أجد كلمة، لقد انتهى المخزون اللغوي لديّ و انتهت الأبجدية فلم يعد هناك حروف جديدة.. إنها ٢٨ حرفا فقط و أنا مللتُ من دور شهرزاد.. أما هي فلن تمل أبداً من دور شهريار وأعتقد أنه في لحظة قد تنادي "مسرور" وتنتهي حياتي.. ماذا أفعل؟ لقد أفلستُ.. إنها تريدني أن أقضي كل الوقت معها وأن أتكلم... كمذياع لا تنقطع أخباره "هنا القاهرة" إني أحبها.. ما من شك ولكن أحيانًا ما أجد لساني معقودا... عندها تغضب وتتهمني بأني لا أحبها فأبدأ في الدفاع عن نفسي!

ولكنها لا تقتنع بأي كلمة وفي آخر الأمر اهتديت إلى حل أن أدعي أنني أصبت بمرض أثر على منطقة الكلام في المخ.. وهذا ما جعلني أفقد النطق وقد أنسى بعض الكلمات فاعذريني حبيبتي!

"بس انا ممكن أشاور كويس" !

تـزوج

من الأفضل أن تكون متزوجاً.. فقد سأل أحد طلاب الفلسفة أستاذه سقراط وعلى وجهه حمرة الخجل قائلاً: هل أتزوج؟ ويبدو أن سقراط أراد أن يعاقبه فقد كان طالباً فاشلاً، فقال له بلغة الفلاسفة: تزوج فإن كانت زوجة "بنت حلال" ستكون زوجاً سعيداً أما لو كانت "بنت ستين في سبعين" فستصبح فيلسوفاً مثلي.. ويبدو أن كلام أستاذه "نغشش في دماغه" فتزوج مقيمًا فرحه في أتخن حته في أثينا وبعد أيام معدودة ذاق عذاب يهون أمامه عذاب بروميثيوس –أحد آلهة الإغريق كان قد سرق النار من السماء وأهداها للبشر فعذبه زيوس كبير الآلهة عذابا أبديا، كما قيل– ولكنه تحمل وجاهد في سبيل أن يحصل على لقب فيلسوف حتى ولو على الدرجة العاشرة ولكن أين يهرب من لسانها السليط الذي دائماً ما يلقبه ببعض الألقاب المحببة إلى قلبها وكانت في "الداخلة والطالعة والفرافرة" تقول: إنت يا جربوع هتاخد ايه من الفلسفة؟ انت ناقص جنان؟ دا أنت مجنون خلقه؟ هي الواحده كانت عينيها فين يوم ما شافتك دا ابن خالتي بقلظيوس كان برقبتك. أخذ يدعو على فيلسوفه العبقري: ربنا يوريني فيك يوم يا سقراط يا ابن أم سقراط.. فنال سقراط جزاءه وأعدم بالسم. كم تمنى في أحلامه الرقيقة أن يقتلها أو أن يقع على رأسها أحد أعمدة معابد أثينا، في زلزال ضخم ينجو منه الجميع إلا هي.

ولكنه في النهاية لم يجد لها حلاً سوى أن يترك لها هذا العالم الأرضي.. أن ينتحر "أنا أنتحر إذن أنا ميت" و انتحر في هدوء وهو يمني نفسه بالخلاص.. ذهب حتفا إلى الجحيم ليجدها تنتظره وتبتسم كشيطان.. لقد ماتت.. فقد وقع على رأسها أحد أعمدة معابد أثينا.. علم وهو يبكي ندما وألما أنها عذابه الأبدي الذي لا خلاص منه حتى بالموت!

الشبيه

هذه ثاني جريمة قتل ترتكب في حيّنا الهادئ، ماذا حدث؟ الكل خائف، والرعب يسيطر على القاطنين في الحي، نصحني صديقي الشرطي بتركيب جهاز إنذار، وكاميرا للمراقبة، وأثناء مراجعة ما سجلته كاميرا المراقبة، رأيت شخصًا يشبهني كثيرا، يخرج من باب البيت، الساعة كانت تشير إلي الثالثة بعد منتصف الليل، كيف لا أتذكر؟!

قـال لي

(١)

قال لي: إذا لم أفلح في تحقيق ما أتمنى، فسأحاول أن أعود إلى عملي السابق، وسأقبل رأس مديري العزيز، وأضحك على نكاته التي انتهت صلاحيتها بانتهاء الخلافة العثمانية، وأغسلُ ملابسه، وأربِّت على كلبه، و أقبله من فمه، و أتحمل سفالة أطفاله الصغار، وأشتري الخضار والفاكهة لزوجته البدينة التي تضع عطرًا خانقًا يعذب الروح، ويسبب التهابًا في الجيوب الأنفية... أنتظر لحظة.. لا.. لن أتحمل كل ذلك الأفضل أن أنتحر!

(٢)

قال لي: قبل الزواج كان الواحد عايش في الـ لا لا لاند ودلوقتي بعد الزواج عايش في كفر دلهاب!

(٣)

قال لي: انفض عن كاهلك غبار اليأس والاكتئاب.

قلت: كيف لي لا أكتئب و أنا أحاول أن أقنعك منذ ساعات أنك مت بأمس في حادث سيارة.

(٤)

قال لى: أما زلت في ضلالك، وغيك القديم؟، أما زلت تذكرها وهي التي ألقتك في الجب ليلتقطك بعض السيارة؟، أما زلت تحفر حروف اسمها على الجدران وتعانق الوهم وتنادي عليها لعلها يومًا تمرُّ عليك وتشمُّ ريحها، أما زلت تكتب عنها، تستدعي المكان والزمان، تبحث في الأثر، وتتحسس الحجر

لعله لامسَ أناملها؟، أنت رهين المحبسين، الماضي والحنين، كلماتك لحنٌ حزين يعزف على وترٍ وحيد، وتر الذكريات، كلماتك قربان يقدم كل يوم لآلهة الجمال، لعلها ترضى، وتهبك ما تتمنى، ولكنه سراب، يحسبه الظمآن ماءً من شدة العطش.

قلت: لا سبيل سوى الانتظار.

(٥)

قال لي: في البداية لم يكن هناك سوى العدم، والوحدة، والفراغ الموحش أكثر من الموت، بل لم يكن هناك موتٌ، هناك أبدية، لا زمان ولا مكان، كل هذا قبل الطاقة، وقبل المادة، قبل الذرة، وقبل المجرة، قبل شريطDNA ، وقبل الخليّة، قبل حروف الهجاء، وقبل الكلمة، قبل المقام، وقبل الدرويش، قبل رائحة البحر، وطعم التفاح، وزرقة السماء، قبل كلِّ الحواس، قبل الحضارة، بل قبل العقل، قبل مخاوفنا، وأحلامنا، قبل الحياة. الغريب إن كل تاريخ الإنسان على سطح ذرة الغبار الكونية المسماة بالأرض، لا يمثل إلا ثانية واحدة بمقياس الساعة الكونية، تخيل كل قصص الإنسان، أشعاره وأحزانه، انتصاراته وهزائمه، لا يمثل إلا طرفة عين في عمر الكون، فلماذا كل هذه الضوضاء التي نصنعها لنقول نحن هنا؟! اهدأ أنت لا شيء.

لحظة إبداع

أدخّن بشراهة، مطفأة السجائر متخمةٌ بأعقاب سجائر لم تؤد مهمتها في إفراغ كل هذا الغضب والحَنَق بداخلي، الأوراق بيضاء، وكأنها كفنٌ أبيض لكلمات ماتت قبل أن تولد، الأفكار الجيدة تتبخر، ولا يبقى منها سوى دخان ورماد، أشياء لا قيمة لها، ما السبب وراء تلك الحالة؟، لا أفكر كثيرًا فالإجابة واضحة وضوح الشمس، إنها هي.. زوجتي اللعينة، ثقب أسود يبتلع كل طاقتي، إنها تستنزف كل قطرة إبداع في معارك ليست لها داعٍ، وأسئلة ساذجة تنتهي بمئات الأسئلة، لماذا أنت حزين دائما؟ لماذا توقفت عن حبي؟ لماذا تغيرت؟ لماذا تحولت إلى هذا الظل الباهت؟ لماذا ولماذا؟ وألف لماذا.

تضيءُ شاشة الموبايل، يهتزوكأنه أفعى، أنتفض، أرى اسم الناشر..

لا أرد، أغلق الموبايل، ماذا أقول له؟! إنه لا يهتم بما أشعر به، إنه يريد أن يرى الورقة الأخيرة من الكتاب، أترك المكتب، وأتطلع من خلف زجاج النافذة إلى حديقة الفيلا، أتامل تلك الشجرة الضخمة، وكأنها أحد العمالقة، وكأنها وجدت منذ بداية الكون، ما هو تاريخ ميلادها؟!، أنا متأكد إنها موجودة قبل بناء تلك الفيلا، بل من الممكن أن تكون موجودة قبل أن أولد، ألاحظ بجانبها حفرةً تم ردمها حديثا، بطول مترونصف تقريبًا، لا أهتم، أعود إلى مكتبي، وأمسك القلم، وأبدأ في الكتابة، أكتب وكأنه أصابتني حمى ما، تمر ساعتان لا أشعر بالوقت، ألقي القلم، وأنا أتصبب عرقا، أقرأ ما كتبته، أشعر بالرضا، مهلا لماذا يدي بهذا الشكل؟، أتعجب من شكل يدي،

كانت متسخة وملتصقًا بها بعض الطين الجاف، من أين أتى؟ لا أهتم، المهم أنني أخيرا كتبت شيئا ما، أقف أمام مكتبتي وأختار كتابًا لأقرأه، كتاب قصة الفلسفة لويل ديور انت، ألاحظ بقعة حمراء داكنة على السجادة، منذ أن تغيبت الخادمة، وحال المنزل يرثى له، أعود إلى مكتبي، و أقرأ باستمتاع حتى تأتي زوجتي العزيزة.

الزقـوم

نجلس حول مائدةِ الطعام، أبي يمارس هوايته المفضلة، وهي الصمت؛ وإبداء اهتمام زائفٍ بما تصبه أمي صبًّا في أذنه عن معركتها مع مديرتها الشمطاء المتصابية، الأرملة السوداء التي مات في عهدها زوجان، أرملة مينا موحد القطرين كما يحلو لأمي تسميتها.. لم تلحظني هي، وأنا أفصل حبات البازلاء عن قطع الجزر المسلوقة التي لا أطيق طعمها، وأتساءل: هل طعم الزقوم في الآخرة أشد أو تلك القطع البرتقالية؟! ولما كان معلم مادة الدين يتحدث عن طعام أهل النار، كنت أتخيل المزيد من قطع الجزر المسلوقة، أدعو الله في سري أن يجعلني من أهل الجنة. تنظر لي أمي شزرا.. أبدأ بتناول قطع الجزر في صمت!

أغنية

بمجرد أن انسابت أغنية محمد عبد الوهاب من خلال الراديو "ما احلاها عيشة الفلاح متطمن قلبه مرتاح.. يتمرغ على أرض براح.. والخيمة الزرقا ساتراه"!

بدأ جدي يلعن، وما كان من اللاعنين!

قال: هذه الأغنية أصابت أكبادنا، وحياتنا، فانهارت بيوتنا الطينية الطيبة، ويبس الزرعُ الأخضر، وأجدبت الأرض، وهجرها أبناؤها إلى بلاد الزفت، من أجل مروحة، ومسجّل، وبطانية، وبيت أسمنتي، ويتمتم جدي غاضبا: تلك أغنية حاسدة حسود!

(ومضات)

(١)

(خلود)

أحرقوا البرديات؛ نقش الدخان المعنى على سحابة بيضاء.

(٢)

(وعظ)

يعظنا (الإمام) بوجه مكتنز قائلا: عليكم بالزهد والرضى! انشغلت عنه بملاحظة تلك الخيوط الذهبية التي تزين عباءته.

(٣)

(مراقبة)

منذ أن بدأوا بتشغيل كاميرات المراقبة في شركتنا، لم نعد نبتسم كما كنا.

(٤)

(زائر)

هبط بمركبته الفضائية على كوكب أخضر جميل، أنهار، نباتات، حيوانات، وطيور مغردة، بحث كثيرًا، وفتش في كل مكان، لكنه لم يجد أثرًا لذلك الكائن المسمى إنسان.

(٥)

(هوى)

هوى من شرفة الحُلم، وتناثر شظايا، بدا كحرف أبجديٍّ مرتعش كتبته يد طفل ثم طمسته، وكأنه لم يكن، يسأل حائراً: لماذا كنت؟ ولماذا لم أكن؟ هكذا هو دائماً نقطة على السطر لا معنى لها، وبدونها يكتمل النص.

(٦)

(رحيل)

لم يعد يحدثني في الهاتف، ولم يأت لزيارتي، كم أنا غاضب منه، مع أني أعرف أنه مات منذ عام.

(٧)

(وشم)

جسده يئن من ضربات السوط، يتحمل من أجل لقمة العيش، تلدُ زوجته ولدًا، يجده موشوما بضربة سوط.

(٨)

(تطور)

قال لي: ما هو التطور؟

قلت: التطور هو إن الإنسان كان يقتل أخاه بقطعة حجر. أما الآن، فالإنسان يقتل أخاه بعنصر اليورانيوم المشعّ، إنه تطور في أسلوب القتل فقط!

(٩)

(تمرد)

الشخصية تتمرّد على كاتبها، لا تبغي السير في الطريق المرسوم، تتوقف، تعود من حيث بدأت، تتخذ طريقًا آخر، تجد في المسير، فرحة بالاختيار، وعندما تصل لنهاية الطريق، تجد أنها حصلت على نفس النتيجة، لتعلم أن كل الطرق تؤدي إلى نهاية واحدة وحتمية.

(١٠)

(الوحدة)

أنا صورة إنسان مرسوم بالطباشير على حائط السجن الرطب، قال لي من خط ملامحي: لا ترفع صوتك، فيسمعك السجان، فيبطش بك. منذ ثلاثة أيام أخذوه لينال حصته من التعذيب، ولكنه لم يعد، كم أشعر بالوحدة!

(١١)

(هيباتيا)

ولدت مختلفة، كبرت، وبدأت تستخدم أدوات الاستفهام، لماذا؟، كيف؟، هل؟، صلبوها، ومحوا أدوات الاستفهام.

(١٢)

(حلوى)

من تحت ركام الحجر تنبت يد طفل، أسمع صوت البائع ينادي على الحلوى، على قطع السحاب المسكّر، أسرع إليه لأشتري واحدة، أقف أمام البائع، أصرخ ولا يسمعني.. لا يراني، أعود إلى الطفل، أنعم النظر في يده الصغيرة، كم تتشابه تفاصيل يده مع يدي!

(١٣)

(رمادي)

جاءني ابني الصغير ذو الخمس السنوات، يمشي على استحياء، وبيديه كراسة رسم، وبابتسامة عذبة، أشار إلى رسم طفولي، بدا لي تجريديًّا غير مفهوم. وقال: هذا أنت يا أبي.

ما أحزنني أنه رسمني بلون رمادي باهت!

(١٤)

(قهر)

أحرقوا البرديات؛ نقش الدخان المعنى على سحابة بيضاء.

(١٥)

(الحسين)

قلت حزينًا متألمًا: ستقتل بأرض بابل القديمة.. أرض الكرب.. أرض البلاء

فقال بسمت الأنبياء: لا بد لي إذن من مصرعي، فلا تحزن. ربّت علي كتفي وأكمل: نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله ومضى إلى غايته، يسابق قرص الشمس نحو المغيب.

(١٦)

(المهمة)

أرسلوه في مهمة إلي عمق الغابة المحرمة، ليكتشف كُنهها، لبث عشرين عاما ثم عاد ولم يؤثر فيه الزمن، أنكروه، لعنهم، واتجه للغابة.

(خـواطــر)

(١)

(ليلي)

جاء معطرا بباقة ورد، وبرائحة الياسمين، ونظرة عينٍ عاشقة، ولمسةِ يدٍ حالمة، وصوت شاعريتغنى بقصائده، بدأ يقص على ما حدث للقمر أمس، وهو يحكي له عني، عن أميرة الأساطير، وسلطانة الشعر، وأن التأريخ بدأ يوم رآني، وأنني زهرة النرجس على التلال البعيدة المنسية، وأنني أذكره بعبق الماضي وطعم التوت.. أعلنت استسلامي وقبلت به حبيبًا وعاشقًا أسطوريا، يتحدى كلمات العشق القديم، ويأتي بحروف جديدة تناسب لون عيني.. الأندلسية وبعد زواجنا ومرور عام علمت أنه كاذب... كاذب فلا أنا ليلى ولا هو قيس!

(٢)

(الدرويش)

درويش.. أنت.. تجلس بجانب المقام تحكي الكرامات والتجليات، في بطن الحوت تفتأ تذكرها، تأبى النسيان، وتتمرد على الأنين، تنتظرُها أن تأتي.. هي.. كمهدي آخر الزمان.. أسألك: من هي؟! تُلقي علي شعرا وكأنه سحر، تسمعني أغنية، تبتسم، وعيناك تحمل بقايا من بريق، تقول: هي أنا.. وأنا هي.. هي قارورة عطر أندلسي تناثر شذاها وتعطرت بها الأزمان، هي قصيدة شعر لم تكتب بعد، هي كوكب دريّ، هي ياقوتة لم يرَ مثلها في البلاد، هي مدينة للحب في السماء، هي ملك كريم ضلّ طريقه في دروب السماء فهبط إلى الأرض، هي خليط من النور والنار، وماء الورد المعطر، والتفاح، ورائحة الليمون، وطعم السكر كموجة بحر.. أنت أقصى أمانيها.. أن تقبل الشاطئ ثم تنتهي.. تموت.. صديقي العزيز.. أنت تكتب في كتاب العاشقين الحكاية الأخيرة.. السطر الأخير والكلمة الأخيرة.. والحرف الأخير، فبعدك توصد الأبواب، وتنتهي الحكايات، وتصمت شهرزاد عن الكلام المباح. فسلام عليك صديقي وروح وريحان وجنة نعيم.

(٣)

(كلمات في الغزل)

لا تلمني فإن القلب بها معلَّق، حسناء ناعسةُ الطرف، إذا مس نور ثغرها قلب، جعلته أشلاء، تقول: إنها تناست ما كان بيننا، وهل ينسى رِي الماء ظمآن؟!

بيضاء كثلج على قمم الجبال يزينه، كاعب تمشي الهوينى وكأنها ريح الصبا على وجه حران.

لا تلمني في هواها، فإنني عبد لها وفي هواها أتعبد، أبكي وروحي فداها وعيناي تقول ما لا أتقول، قد شف جسدي فمتى اللقاء؟ فإنني يموت بعضي كل يوم وأعذّب.

(٤)

(شظايا)

ما أنت سوى وهم صنعته مخيلتي، فارحلي من خلاياي((، و اتركي مدينتي، فلم تعد المدينة هي المدينة، تغير كل شيء، تهدَّمت أسوارها، واجتثت أشجارها النبيلة، طمس الحزن آثارها، فلم يبق منها سوى ريح تصفر، تنعي قصة الحب القديمة، فارحلي، وأغلقي الباب خلفك بأقفال صدئة، واكتبي عليه بدم بارد، لا تفرحنّ بالهوى فإن من هَوِيَ هوى، وقتل بلا ذنب ولا جريرة!

(٥)

(انعكاس)

أنظر في المرآة، ملامح منهَكة، وعينان تائهتان، وجسد هزيل، هل هذا العالم حقيقة أو مجرد وهم سيتلاشى في يوم ما؟! كل شيء زائف، الضحكات والدموع، الحبُّ والكره، الحياة والموت، ليس هناك شيء حقيقي، كل هذا الذي نراه بأعيننا مجرد تصور، تخيل لما نريد أن نراه، أتحسس وجهي، هل هذه ملامحي أو هي ما أريد أن أراه ويراه الناس؟ إننا كذبة فليس الشيطان شيطانًا، وليس الدرويش درويشًا.

(٦)

(فراق)

رأيته في المقهى، في ركنٍ ركين، على كرسي وحيد منزوٍ، منغمسًا في اللون الأسود والحبر الأسود، يكتب، بدت لي الصورة حزينة، حتى دخان غليونه أصابه الشجن، عيناه تنظر إلي ولا يراني، تائهًا، وصوته يرتعش كوتر كمان، قلبه ينتفض بين ضلوعه، يخفق كجناحي فراشةٍ ترقص رقصة النار الأخيرة، كنت أريد أن أسأله: ما بك؟ وكأنه علم ما أريد فقال وهو في عالمه الأثير: لقد غاب القمر اللازوردي، وطويت الصفحة الأخيرة، فلا حياة هنيئة بعدها. وتمتم ببيت شعر قديم:

أما وعدتني يا قلب أني * إذا ما تبت عن ليلي تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلي * فما لك كلما ذكرت تذوب

(٧)

(صُبح)

البداية.. ولحظة الميلاد، عندما رأيتها، تجلس على هذا المقهى فعلمت أن اللغة قاصرة، وأن المعنى عميق، والطريق طويل، والزاد قليل، وأن العينين متاهة، والبحر بلا شطآن، وأن القصيدة تأبى أن تفصحَ عن سر الحرف وغموض النقش، كانت تداعب أوتار العود، وأوتار القلب، سحرني النغم، وأرسلني في عمق التاريخ، رأيت صبح البشكنسية، وهي تمارس سحرها وفتنتها علي الحكم (الخليفة الأموي الأندلسي)، فوقفت صارخًا: أنا المحطم... أنا البقايا... أنا أربعين سنة من لا شيء!

(٨)

(المنبوذ)

أطرق بعيني الأبواب، لعل الأميرة تصحو من نومتها الأبدية، وتطل على من شرفتها فأبايع الأميرة، ملكة على مدينة السكر، ولكن الأبواب مؤصدة، وعيون الحراس تنكرني وتنهرني، فأنا وجهٌ منبوذٌ منذ سنين، اعتراني الكبر، يصيحون: ابتعد أيها الغريب وإلا...، أصبحت غريبًا في مدينتي! وقد كنت فارسًا، أزين كفك بالشعر، و أقطف من عينيك عناقيد الجوهر، تُرى ماذا أصاب ذاكرة الزمن؟! هل أصابها الصدأ والعجز أو نحن لم نعش في الأصل هذه الحياة، فكنا كبيت شعر في خيال شاعر لم يكتب؟، أنا ما زلت أنتظر أن تفتح طروادة حصونها، ولو لم تفعل سأدخلها في جوف حصان من قصيدة تبدأ باسمك يا ربة الحب !

(عطا)

كان (عطا) نحيفًا كغاندي، وجهه مستطيل يميل للسمرة، ذو رأس صغير، وفم و أنف دقيقان، وعينان ضيقتان عسليتان، يشعّان ببريق غريب، وشعر أسود فاحم يعتني به أشد عناية، كان عندما يتحدث تتحرك يداه وينتفض جسده كعصفور بلّله القطر، كان دائم السخرية منا وكنا نتحمل سخريته لأننا نحبه، فمن عادته أن يجعل واحدًا منا هو النكتة اليومية، وكل قفشاته تنصب على هذا المختار، القربان المضحى به لإله الكوميديا كما يقول، وفي مرة كنا نجلس مجلسنا المعتاد وكان من بين أصدقائنا صديقٌ أبيض مربرب محمر ذو عينان زرقاوان وشعر أشقر.. كان (عطا) يطلق عليه اسم (الخواجة) افتتح (عطا) الحديث قائلا: مش أنا عرفت أصل (الخواجة).. ازاد احمرار وجه (الخواجة) وقد علم أنه المختار لتلك الليلة، أكمل (عطا) حديثه: أصله يرجع إلى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، عندما كانت جدته "ست الكل" تغسل الأواني النحاسية على شطّ الترعة، ولما رآها جند الفرنسيس والنسل كله كما ترون أحمر، و أبيض وأزرق لون علم فرنسا.. نضحك بهستريا يزداد (الخواجة) غضبًا واحمرارا يتركنا والغضب يتقاطر منه.. يقول (عطا): لماذا يغضب؟ كله مكتوب في كتاب تاريخ الجبرتي.. فصل ست الكل وجنود الفرنسيس.. ابتسم في تلك اللحظة و أنا أجلس في شركة الخواجة العالمية للاستيراد والتصدير الذي استقبلني بحرارة زائفة ونظرة..

هل ترى ماذا أصبحت؟ تحدثنا في أمور كثيرة وأثناء حديثنا دخل (عطا) أو شبحه لقد انطفأ الرجل وخبت جذوته.. عيناه مات بريقها خلف نظارة سميكة.. بدأ (الخواجة) يعنفه على تأخره وإهماله وأنه لا يصلح للعمل ولولا العشرة القديمة لألقاه في الشارع.. انسحب الرجل وهو يتعثر في أشلائه.. يبتسم الخواجة في وجهي قائلا: تشرب إيه؟

لم أرد عليه وغادرت المكان في صمت.

(الحل السحري)

قال: الحل أن نتعاقد مع حكومة يابانية لمدة ١٠ سنوات لإدارة البلد.

قلت: افرض إنهم فشلوا.

قال: يبقى نتعاقد على شعب آخر -ألماني- يجي يسكن البلد ولما تتحسن نبقى نرجع تاني.

قلت: طيب واحنا نروح فين؟

قال: طبعا ألمانيا ولما الظروف تتحسن نرجع على طول!

(البالونة)

انفجرت البالونة في وجه (عم عبده) من أول نفخة، فضحكنا، فغضب، وثار، وصرخ في وجوهنا قائلا: لعنة الله عليكم، وعلى كل شيء في هذا الزمن، حتى البالونة مغشوشة، أين تلك البالونة من بالونات ذلك الزمن؟! كنا ننفخها ولا تنفجر إلا إذا أطلقنا عليها الرصاص.

(ذكرى)

فتحت الدرج الخاص بي.. كان به صورة قديمة أبيض وأسود..

نسخة من جريدة قديمة كانت قد نشرت قصة قصيرة لي..

رسائل قديمة بيني وبين صديق لي.. تعود لعام ١٩٩٩ نتحدث عن أحلامنا بعد التخرج وآمالنا وطبعا ده كان قبل الفيس بوك ووسائل التواصل الاجتماعي!

دفاتر قديمة بها محاولات للكتابة بعضها جيد وبعضها الآخر يستحق الحرق..

طبعا الصورة القديمة اللي بالأبيض والأسود هي أقرب حاجة لقلبي، ليه دايما الصور القديمة أحلى؟ سؤال دايما بسأله لنفسي!

أبدو في الصورة صغيرا جدا.. بريئًا جدا.. سعيدًا جدا وأمي تضمني إليها بحنان كم أفتقد هذا الإحساس.. أنا كل لما أشوف الصورة أحزن و أفرح.. أبكي وأضحك أشعر بكل حاجة وضدها!

وحقيقي كنت أتمنى أن الزمن يتوقف عند لحظة التقاط الصورة، و أبقى أنا صغيرًا جدا.. بريئا جدا.. سعيدا جدا!

(فنتازيا)

أنا متأكد ان فيه حد في الشقة -أحدث نفسي برعب- الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، يطير النوم من عيني، أقرأ آية الكرسي، أفتح باب غرفة النوم، و أقترب من باب المطبخ، اقول بصوت مرعوش ميييين؟! مين اللي في المطبخ؟! جاءني ردٌّ لم أكن أتوقعه وبصوت مألوف: أنا خالو يا حمادة.. أقول: خالو؟! أتذكر أن أمي وحيدة وليس لها إخوة.. أصرخ و أنا أدخل المطبخ: أولا أنا ما عنديش خال.. ثانيا: أنا مش حمادة.. أراه يقف أمامي مبتسمًا ابتسامة ساخرة وقسمات وجهه الحادة ترسل رسالة أن هذا الرجل ليس سهلا.. أنيق أناقة مفرطة.. يرتدي بدلة لا أجرؤ على مشاهدتها في فترينة محل، يقول: اعتبرني زي خالو يا حمادة!

أنا مش حمادة.. أدقق النظر في وجهه وأصرخ: لا مستحيل، أنت استيفان روستي. لازم أنا لسه بحلم!

بتحلم ولا ما بتحلمش أنا لقيت نفسي جعان قلت أعمل شوية شكشوكة.. تأكل معايا؟

هززت رأسي بالمو افقة.. أنا أكيد بحلم!

أخذ يقطع الطماطم بمهارة الشيف الشربيني، ويقذف السكين ويلتقطها بمهارة قاتل محترف!

إيه رأيك لما اعلمك تقطع طماطم بالطريقة بتاعتي؟!

قلت: طبعا. أخذ يقذف السكين بمهارة فائقة ثم أعطانى السكين. قائلا: دورك يا حمادة.

أخذت السكين وبدأت أقذفها في الهواء بمهارة طباخ ياباني و... صرخ الأستاذ استفان روستي وهو يمسك السكين وهي مغروزة في صدره قائلا: نشنت يا فالح سفوخس على اللي يعلمك حاجة تاني، يا حمادة. أقول: أنا مش حمادة، يسقط وهو يكمل: كان نفسي في الشكشوكة!

(الشيطان)

جلست حزينًا مهمومًا وسألت نفسي: وماذا بعد؟ لقد مللتُ من بني البشر، ومن كل شيء حولي أريد أن أستريح.. أن أنعم بلحظة هدوء. أن أخلو إلى نفسي وأسترجع شريط حياتي.. ولكن من يحل محلي؟ لمن أترك وظيفتي؟ هل أتركها لأحد أبنائي؟ أخاف أن يطمع فيها فأجد نفسي بلا وظيفة! الحل هو أن أختار أحدا من بني البشر! وأثناء سيري رأيت شحاذا عليه أسمالٌ باليةٌ يسأل الناس بأسلوب أقنعني أن أمد يدي في جيبي وأخرج بعض الجنيهات وأعطيها له.

دعا لي قائلا: ربنا يطول في عمرك يا بيه.

من الناحية دي اطمن.. وأكملت: أنا عايزك في شغلانة.

- تحت أمرك يا بيه أنا خدامك.
- عايزك تبقى أنا.
- العفو يا بيه، أنا شحات مسكين وأنت بيه كبير المقام.. لازم أنت بتهزر هي العين تعلى على الحاجب؟
- أنا بتكلم بجد أنا عايزك تبقى مكاني كام يوم كده.. أصل أنا عايز استريح شويه وشغلانتي بسيطة وسهلة.
- وشغلانة ايه دي؟
- الزن في الودان.
- إنت بتشتغل ايه حلاق؟
- لا أنا بشتغل شيطان.

- شيطان! أعوذ... وضعت يدي على فمه.. إنت عايزني امشي ولا ايه.. دا أنا هاغرقك فلوس.
- بس دي أول مرة أشوف حضرتك.. بس أنا كنت متخيلك بقرون وديل.
- إيه يا عم انت كده متخيل معزة مش شيطان.. بص شوف يا معلم أنا هعطيك الفلوس اللي انت عايزها وأي حاجة تتمناها.
- مفيش قول بعد قولك أنا مو افق.. بس ازاي هاشتغل و أنا ما عنديش قدرتك ولا قوتك؟
- ما تخفش أنا هدربك.
- في برج العرب ولا في الجونة؟
- أمسكت نفسي من أن أحرقه حيًّا وقلت في نفسي:
- هو حظى يوقعني في شحات من موجة كوميدي؟
- أنا هاعطيك لمسة شيطانية تخليك جن مشيطن.

الشحاذ بعدما ارتدى ثوب الأبالسة:

- إيه رأيك أنفع؟
- مش بطال بصّ بقه أنا تعبت وهسيبك دلوقتي!
- ما تشيلش هم بدون مقاطعة هتلاقي كل حاجة تمام.. هتيجي من الأجازة هتلاقي الناس مقطعة بعض والدم للركب.
- أنا عايزك تشتغل بضمير ولا تؤجل شر اليوم إلى الغد!
- إنت دلوقتي معطلني ومش عارف اشوف شغلي.
- طيب... طيب أنا ماشي.

- لا إله إلا الله.. تروح وتيجي بالسلامة.

الشيطان يصرخ:

- أنا حاسس إن نهايتي هتكون على إيديك. يختفي ويتركه وحيدا!

ثلاثة أشهر كاملة و أنا خارج نطاق الخدمة.. ولكنني أسمع عن أخبار ثورات و انقلابات ومذابح ومجاعات.. هذا الشحاذ يلعب دوره باقتدار لا بد له من مكافاة تليق بهذا العمل الظلامي!

أعود لأجده يجلس أمام شاشة تليفزيونية عملاقة، ويبكي من مشهد سينمائي قديم لفاتن حمامة ويقذف بعض حبات الفشار في فمه.. أحس وجودي.. التفت إليّ:

- أهلا وسهلا وحشتني. وقام باحتضاني بشوق و أكمل:
- إنت جايب لي معاك إيه؟
- هو أنا جاي من الكويت؟ إنت بتعمل ايه؟
- بشوف فيلم الملل بعيد عنك يقتل.
- والشغل اللي اتفقنا عليه؟
- إنت شايف الناس مولّعة في بعض من غير حاجة.. أنت فاكر أني عملت حاجة.. دا أنا من ساعة ما سبتني و أنا قاعد اتفرج على روتانا كلاسيك والناس اتوحشت.
- يعني ايه الناس مش محتاجة لي؟!
- بصراحة أنت ما لكش لازمة الناس تفوقوا عليك في الشر.. أفكارك قديمة لا تناسب العصر.

- يعني أنا دلوقتي عاطل بلا وظيفة؟ و أنا اللي كنت فاكر إني بذكائي وشيطنتي اللي بعمل كل الشرور اللي في الدنيا. أجلس بجانب الشحاذ و أتناول بعض حبات الفيشار و أبكى عندما تسقط فاتن حمامة ميتة بمرض خطير.. أسأله هي كانت عيانة؟ يجيب من وسط دموعه: أيوه!

أبكي بصوت مسموع!

(الغول)

منذ أكثر من ساعة وانا أحكي لابنتي قصصًا عن السندباد والأميرة المسحورة والغول! شهرزاد نفسها كانت ستنادي مسرورا ليخلصها من هذا العذاب.. أسئلة لا تنتهي!

- إيه هو الغول يا بابا؟

- وحش خرافي شكله مخيف.

- يعني ايه خرافي؟

- يعني مش حقيقي.

- وشكله مخيف كده زي الأستاذ سيد جارنا؟

- مع اختلاف إن الأستاذ سيد رأسه أكبر قليلا و أنفه أصغر كثيرا وكرشه أوسع بعض الشيء (من النهب والرشوة)!

- الغول له غوله يعني مجّوز؟

- أكيد له زوجة وأولاد.

- ممكن الغول دلوقتي بيقرأ قصص زيك كده لأولاده؟

- ممكن.

- وممكن القصص دي تبقى عنا؟

- ممكن تبقى عني وعنك وعن الليلة السودا دي وعن الأستاذ سيد.

وبعد عناء ومشقة أتى النوم.. بكيت من الفرحة وخرجت و أنا أحبو:

– بابا هو الغول عينه حمرا؟

فقدت النطق!

(مقهى التكية)

م ١ نهار_ خارجي!

الكاميرا تتحرك في أرجاء المقهى.. وجوه رجال يدخنون الشيشة وآخرين يشربون الشاي، ودرويش يمشي بالمبخرة يتمتم بأسرار وطلاسم دخان المبخرة يغمر المشهد.

صوت:

التكية اسم غامض يحمل بين طياته سرًّا صوفيًّا لم يعرف بعد.. دائما ما تسألت عن أصل الكلمة: هل هو تركي أو فارسي أو هي كلمة عربية جاءت من الفعل اتكأ أي هي الملجأ والملاذ؟

صوت الست أم كلثوم: فات الميعاد.. الكاميرا تقترب من كنكة القهوة وهي تعد ويبدأ القهوجي في صبّها ويضعها على الصينية وبجانبها كوب ماء، والكاميرا تتابع الصينية بمحتوياتها وهي تتجه إلى شخص جالس بمفرده ويبدو تائها!

القهوجي:

القهوة يا بيه!

لم يبدُ أن الرجل الجالس سمع شيئا.. يتركه القهوجي ويمشي والكاميرا تقترب من فنجان القهوة!

الصوت:

أنا عارف إن أنت مش عايز تشوفني ولا تكلمني.. بس صدقني أنا رحمتك من مأساة إغريقية كنت هتعيشها.. نكد ليل ونهار رايح فين وجاي منين؟ عذاب أبدي لا ينتهي إلا بالموت.. الموت الذي تتمناه ولن تناله.. عايز تتجوز ليه؟ أنت الآن حر طليق طير في السما والحرية لا تقدر بثمن.

الرجل الجالس يرفع يديه يودّ أن يصفع الصوت فلا يستطيع!

الرجل:

اسكت يا ابن المؤذية.. أنت السبب افتكرتني مجنون و أنا بكلم سيادتك ضروري تطلع لي وهي معايا؟ أنا كنت ساعتها هعرض عليها الجواز والأمور ماشية عال العال لحد ما انت طليت بطلعتك البهية.. مش احنا اتفقنا إني ما شوفش وشك وهي معايا!

الصوت:

أنا صحبك ومش ممكن أشوف صاحبي هيوقع وما ألحقوش.

الرجل:

يا أخي أبوس ايدك اللي مش شايفها كنت سيبني أتنيل أقع.

الحسرة تظهر على وجهه.

كان فاضل خطوة وأحس إني إنسان طبيعي.. أتجوز ويبقى لي بيت وأولاد.

الصوت:

يا ابني انت إنسان طبيعي ١٠٠% بيور أصلي!

الرجل:

طبيعي ازاي يا ابن الهبلة و أنا قاعد بكلم فنجان قهوة.

الصوت:

كل العباقرة كده.

الرجل:

عبقري دا انا مدرس ابتدائي بدرس جدول الضرب و ١ + ١ = ٢

الصوت:

و أنت فاكر رياضيات ابتدائي سهلة؟ دا النسبية بتاعت اينشتين اسهل بكتير،

وما دام أنت شوفتني تبقى عبقري!

الرجل:

دايما حاسس إن الحال هيتغير وابقى في يوم من الأيام أحسن و اقابل حب حياتي وأعيش.

الصوت:

يا ابنى انت عايش احسن عيشة وأنا وانت ما لناش غير بعض.. بص ايه رأيك نروح البيت ونشوف فيلم جون كوزاك ١٤٠٨فيلم روعة الروعة ولا إيه رأيك في فيلم دي نيرو hide and seek فيلم كنافة بالقشطة ولا فيلم dream house بتاع الواد البارد الرذل اللي بيمثل دور جميس بوند اسمه جريج؟

يحاول الصوت تذكرالاسم.

الصوت:

مش مهم بس الفيلم حمادة بالجنزبيل.

الرجل:

هي كل أفلامك أبطالها ناس مجانين؟ ربنا ينتقم منك أنا هسيب لك المكان وأمشي. يقف الرجل ويمشي بضعة خطوات لكنه يعود منكسرًا لجلسته السابقة يبدو عليه الهزيمة.

يختفي المقهى ورواده، ولا يبقى سوى الرجل وفنجان القهوة والدرويش وهو ينشر دخان بخوره في أرجاء المكان!

(المنفى)

و أنا في طريقي إلى المنفى الاختياري -قرية صغيرة- نقطة لا تكاد ترى بين فرعي النيل، لا أدري لماذا أطلقوا عليها ٢٨ كنت ابتسم محدثًا نفسي بأنه يقطنها ٢٨ فردا وعندما مات الشخص الثامن والعشرون أرسلونى لأكمل العدد.. أنا من طلبت النفي إلى أي قرية بعيدة عن المدينة لألتقط أنفاسي وأعيد تنظيم حياتي بعد انفصالي عن زوجتي.. أحسست بأني إنسان فارغ.. بأنني لا شيء.. أتذكر كلماتها: أنت لن تستطيع الحياة في هذا العالم، أنت إنسان أبسط من اللازم، أبسط من حيوان أوليّ الخلية، الحياة تحتاج بعض التعقيد، أنت لا تستطيع العيش هنا في هذه المدينة، وأكملت ساخرة: ربما في عالم آخر!

ولذلك بحثت عن بيئة أخرى ليتطور هذا الكائن البدائيّ، فلم أجد خيرا من هذه القرية ووظيفتي لن تفتقدها المدينة ولن يشعر باختفائي أحد.. إنها ليست ذات أهمية أخصائي مكتبة.. وظيفة منقرضة كالماموث فليس هناك وقت للقراءة والتعامل مع الكتاب.. الآن آلاف الكتب ممكن أن تضعها على شيء تكنولوجي كئيب وتقرأ ما تريد.. الجيل الجديد لا يعرف معنى رائحة الكتب وملمس الورق وعطر الكلمات المكتوبة. ما زلت من كارهي التكنولوجيا من رجال الماضي، إلى الآن لم أتعامل مع جهاز الكومبيوتر إلا قليلا وهذا الموبايل تعاملت معه بشق الأنفس.. دائما ما كنت أتساءل: كيف عندما

يريدك شخص في أي لحظة فإنه يحصل عليك فورا؟ لذلك فأنا أُغلقه في أغلب الأوقات!

الآن أقف على مشارف القرية، وهذا الخيط الرفيع بين الظلمة والنور، بدأ يظهر في السماء، القرية تغرق في مشهد ضبابي كثيف سكون بارد وكأني أخطو داخل قبر، وبذكر القبور فالقرية أول منظر يطالعك فيها هو الموت، شواهد القبور شاخصةٌ تحدق ولا تبوح بالسر وكأن البداية هي الموت، ماذا وراء الموت؟ ماذا وراء هذا الباب؟ هل نحن أجنة على هذه الأرض وعند موتتنا الأولى فإننا نولد؟ ليس هناك إجابة سوى لغة الصمت.. الذي يقطعه نعيق غراب.. ارتعد جسدي كله عندما رأيت رجلا يرتدي جلبابًا لم أتبين ملامحه.. قال بصوت اقشعر له بدني: أنت اتاخرت ليه؟ اتفضل. وأشار إلى مقبرة مفتوحة فاتجهت إليها بصمت لعلي أولد من جديد!

(مأساة)

استيقظت مفزوعة، وألقت نظرة يملؤها الضيق على وجه زوجها النائم في سبات عميق، وتعجبت وهي تسأل نفسها: هل هذا الأصلع البدين الذي ينام كأصحاب الكهف وكليهم هو زوجها؟! ماذا حدث؟ كيف تغيَّرَ حبيبها وفارسها إلى هذا الرجل الذي لا تكاد تعرفه؟ ما زالت تتذكره، وحمرة الخجل تسيطر عليه، وهو يسلمها أول رسائله الغرامية، وكيف كاد قلبه أن يتوقف عندما صرختْ في وجهه، ومزقت كلماته، وطعنته في كبريائه، وكيف كانت تتابعه وهو يغادر وقدماه لا تقوى على حمله، حتى أنها أشفقت عليه وبعد أن ذاب واختفى أخذت تجمع القصاصات في لهفة... أبيات من شعر جاهلي لا تعرف معناه، ولكنها فرحت، وأعادتْ القراءة مرة تلو الأخرى، وانتظرته أن يقوم بمحاولة أخرى لكنه قنع بما ناله من إهانة، فصمت كقبر فرعوني، مما جعلها تخلع رداء الكبرياء وتقوم بالمبادرة، رأته يوما يخرج من باب كافتيريا الجامعة فتلاقتْ أعينهما للحظات، قبل أن يغض الطرف ويسرع الخطا، وكأنها مصابة بالطاعون، فلم تدر إلا أنّها تلفظت باسمه فتوقف وارتسمتْ على وجهه أمارات عدم التصديق فابتسمت... وتزوجا ومرتْ أيام تلو أيام تغير زوجها وكأن أحد الكائنات الفضائية اختطفه، وتم تبديله بنموذج بشري آخر، فالجسدُ النحيل تكدس بالشحم، والشعر الحرير بدأ ينحصر بلا عودة، والصوتُ الرقيق صار كصوت ماكينة ريٍّ قديمة، واليد السخية التي قال فيها الشاعر: ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها، أصبحت مغلولة إلى عنقه.. ارتفع غطيط زوجها فألقتْ نظرة ما باليد حيلة، وذهبت لأحلام أخرى!

وبعد لحظات استيقظ زوجها، واعتدل في جلسته، وامتدت يدهُ إلى كوب الماء بجانبه، وتجرعه على مهل، وكاد أن يعود إلى نومه إلا أنه نظر إلى زوجته في حَنَق، وتساءل كيف تحولت زوجته غصن البانِ إلى شجرة الجميز؟! هذه تذكر كلماته المسروقة من شاعر قديم: تعشقت ظبيًا ناعس الطرف أحورا تغار منه غصون البان إذا مشى.. تذكر في هذه اللحظة الأغنية التي تقول: لو كنت أعلم خاتمتي، ما كنت بدأت.. إنها مأساته الإغريقية وقدره وحظه البائس ولا بد أن يعيشها.. شاء أم أبى فتثاءب وغرق في نوم عميق!

(سطور من حياة زوج)

تغيرت نظرتُها.. أصبحت أكثر استفزازاً، ذلك البريق الساخر الذي يشع من عينيها، والذي يجعلك تذوب من أمامها، كشمعةٍ تلفظ أنفاسها الأخيرة، لا أدري كيف تحولت زوجتي؟.. ذلك المخلوق الملائكي الرقيق إلى هذا الوحش المستفزّ؟ هل كنت أعمى عندما تزوجتها؟! أو هي التي استطاعت أن تخدع هذا الغر الساذج "أنا بالطبع" لقد تلونت كالحرباء؛ فوقعت في الشرَك عن طيب خاطر متخيلاً أنني سأكون سعيداً، يا لي من أحمق! كنت أريد أن أسألها وهي تمشي كالطاووس لماذا؟ لماذا هذا الغرور؟ وكأنها قرأت أفكاري أو أنني تمتمت بالسؤال دون أن أدري؛ فقالت وهي تتمايل كالسكارى: الغرور كلمة خلقت لتلتف كعقد من اللؤلؤ في تباه وخيلاء.. فتمنيت من كل أعماقي أن يلتف هذا العقد حول رقبتها ويعتصرها، ولكني كتمت أمنيتي بداخلي واستمعت إلى بقية حديثها مغلوبا على أمرى.. فأكملت: إننا هدايا من السماء إليكم أيها الرجال!

"آه لو كنا نعلم ما بداخل الهدية لأحرقناها بلا تفكير"!

تحسست خصرها بيديها وهي تقول: ما رأيك في هذا الجسد؟

من حسن حظك أنك امتلكتَه!

قلت مستجمعا شجاعتي: بصراحة إنك في نظري لا تساوين شيئاً، لقد مللت من جسدك ومنك أيتها الحمقاء الغبية.. ألا تعلمين أنني أدعو الله ليلاً ونهارا أن يخفيك عن ناظري.. وأن تبتعدي عن حياتي.. أن تصبحي دخانا...

رمادا... حفنة من تراب... أن تصبحي لا شيء وعندها سأستريح وأسترد حياتي المفقودة. أصابتني الدهشة لأنها لم تثرْولم تغضب ولقد علمت لماذا؟ لأنني لم أستطع التفوه بأيّ كلمة من هذا الحديث.. لقد ابتلعته قبل أن أقوله...

لقد دفنته بداخلي، وقد علمت أن العصر القادم هو عصر الزوجة لا الزوج!

(انتحار)

كنا على المقهى كالعادة فقال فجأة: عرفت اللي حصل؟!

منذ زمن لم يكن هناك جديد كلماتنا هي.. هي.. حياتنا متوقفة.. جامدة كعجوز قعيدة تنتظر الموت، لم يكن هناك شيء يجذب انتباهي،

قلت بلا مبالاة: إيه اللي حصل؟

قال: (سارة) انتحرت.

قلت: (سارة) مين؟

قال: (سارة) زميلتنا القديمة في الجامعة.

توقف الزمن.. أسمع دقات قلبي كطبول إفريقية مجنونة!

أتذكرها أيام الجامعة.. وردة متفتحة.. متمردة.. ذكية.. مثالًا للحياة، أحببتها في صمت.

وكانت هي حبيبتي السرية، أكتفي بالنظر إليها، ولا أجرؤ من الاقتراب.

مرت سنوات الجامعة، واختفت قمري، وتركت أثرا في الروح، وذكرى في القلب. أتساءل: ماذا حدث؟ كيف غيرتها الحياة وحطمتها!

قلت: إنت عرفت ازاي؟

قال: أنا لسه بكلم زميلتها (مها)، وهي اللي قالت لي، وكانت منهارة من العياط، ومش مصدقة.

قلت ووجهها البريء يبدو لي من بين سحابات الدخان: هي انتحرت ازاي؟

قال: أنا عرفت من مها انها أخدت كمية كبيرة من الأقراص المنوّمة، ولما وصلت المستشفى كانت ماتت. تنهد، و أكمل: الله يرحمها.

قلت: ما تعرفش إيه السبب اللي خلاها تعمل كده؟

قال: لا ما اعرفش، بس انت عارف إن في حياتنا مليون سبب يخلينا كلنا نعمل كده. بس ما بنقدرش، يمكن جبناء، أو خايفين من عقاب ربنا، أو يمكن استسلمنا للي احنا فيه.. أنا كتير أوي فكرت في الانتحار، بس باستعيذ بالله من الشيطان، و اقوم اصلي ركعتين.

سألني: إنت فكرت قبل كده في...

قاطعته قائلا: لا.. لا.. أبدا.

تركته، و انصرفت، و أنا أتحسس معصمي، و آثار محاولة انتحار فاشلة لا يعرفها صاحبي!

(مشهد تمثيلي)

قال المخرج وهو ينفث دخان سيجارته في وجهي: أنت تقف هنا بجانب السرير.. وتنظر لها نظرة كلها غضب وكره فأنت علمت بخيانتها.. توجه لها مسدسك وتطلق عليها النار!

يلتفت إلى (سهام) الممثلة التي تلعب دور زوجتي يقول: أنت تبكين.. تستعطفينه بالحب الذي كان.. أنا عاوز مشهد ارتجالي اظهري لي كل وسائلك الدفاعية لتجنب لحظة الموت على يد زوجك، وقد اكتشف خيانتك يوجه حديثه إلي قائلا: أنا عايز ملامح وجهك تنطق بكل الكلام اللي كان ممكن تقوله في المشهد: خاينة.. حقيرة.. لا تستحقين إلا الموت أنا عاوزك لوحة فنية من الغضب والكره!

أقول و أنا أتنفس بعمق: إن شاء الله هيطلع مشهد حلو.

المخرج يهز رأسه في صمت.

(سهام) تبتسم وتشجعني قائلة: إن شاء الله الفيلم يكسر الدنيا.

ابتسم واستعد للمشهد.

المخرج: الكل في مكانه.. أكشن.

(سهام) برعب: أنا بحبك.. أنت غلطان.. أنا عمري ما أخونك، صدقني.. أنت مش فاهم.

أصوب المسدس إليها والغضب يسيطر على كل خلية من جهازي العصبي، وأطلق عليها النار.. أطلق النار على الخائنة القذرة مرة.. اثنتان.. ثلاث.

أتنفس بعمق.. أنظر حولي ماذا يحدث؟! لا أحد موجود، أين المخرج؟ أين اختفى كل كاست التصوير؟ أنظر في وجه (سهام) الخالي من الحياة والدماء تتناثر حولها في فوضى عارمة، أدقق النظر، الذهول يسيطر عليّ، إنه وجه زوجتي، أتلفت حولي في رعب، هذه حجرة نومي، ماذا فعلت؟ أسمع صوت المخرج يقول .cut

(محاولة كتابة شيء ما)

هيأت طقوس الكتابة.. فنجان القهوة، الأقلام، والأوراق البيضاء، وبعض الكتب المتناثرة على المكتب بإهمال، علبة سجائر ما زالت عذراء لم يمسسها بشر، أين بنات أفكاري؟

هل تزوجن؟ هل توفين في حادثة سيارة؟... أو تم أسرهن في قلعة الموت لدى الحشّاشين، جلست، وقفت، مشيت في كل شبر في الغرفة، زحفت على الأرض كزاحفة منقرضة، ذهبت إلى المطبخ.. فتحت الثلاجة وأكلت، وقفت في البلكونة أتابع البشر، وأكلت، استنشقت عطر الياسمين، وأكلت، أمسكت القلم أعصره، لعله يتساقط منه كلماتٌ باقية من قصة ما، لكنه كان أبخل من كَسع -هو رجل بلغ من بخله أنه كوى اسْتَ كلبه حتى لا ينبح، فيدل عليه الضيف- لم يمنحني سوى خطوط متقاطعة، ودوائر متداخلة، تلك الدوائر أخذت تشدني كثقب أسودَ إلى أسئلة لم أجب عليها بعد، هل أصبت عندما استقلت من الوظيفة الحكومية التي يسعى إليها بنو البشر في بر مصر؟ عمل إدارى مقيت.. رتيب.. مملّ.. مئات الوجوه تتمنى لك الجحيم.. آلاف الأوراق، أختام، ضجيج، ابتسامات لزجة.. عرق... شاي أسود من ليلة رعب بلا قمر، يذيقك مرارة الدنيا، ويذكرك بعذاب الاخرة، لعنات تصب عليك كأنك من الكفار، ومدير مربع كلما بدا لك يصبح الهواء ثقيلا، ويقذفك بنكتة انتهت صلاحيتها بانتهاء الخلافة العثمانية، لا يضحك عليها إلا هو، وبعض المتملّقين، ثم يتدحرج عائدًا مكتبه، مطمئنًا أنه أدى عمله، وجعل حياتي

نعيما مقيما، عيون الناس تخترقك، جحيم مستعرّ، هذا هو عملك، عذاب سيزيفي، وفي وسط هذا المستنقع، تنبت زهرة، هي من أعطتني القوة لأحتمل سخافات الآخرين، (دينا) جميلتي في بلاد الأحزان، قطعة السكر، والحلم المستحيل، كان يوم قدومها علينا يوم عيد، فقد توقف مديرنا عن إطلاق نكاته الضارة جدًّا بالصحة، تحذير: قد تؤدي إلى الوفاة لو زادت الجرعة، بدأت أتنسم عبير الياسمين، وأرى العصافير والحقول الخضراء، وأسمع صوت فيروز، أنا لحبيبي وحبيبي إلي، أخرجني مما أنا فيه صوت نقيق ضفادع، يبدو أنه موسم التزاوج فكل رجال المكتب بدأتْ الهرمونات تعمل عملها، والكل بدأ يخطط ليحصل على قطعة البسبوسة، حتى (عم إسماعيل) الموظف المثالي لعقدين من الزمن، المعمر الذي بلغ من العمر عتيا، بدأ يهتم بمظهره كسحلية تستعد للزواج، ألوان ملابسه تنافس قوس قزح، ومطربي الأفراح الشعبية، ولوحات الفن السيريالي، إنه خصم هيّن، أستطيع الفوز عليه بسهولة، ولكن هناك بقية أفراد القبيلة، الكل يشحذ أسلحته، إنها معركة، ولا بد من منتصر، أنا سأستخدم الأسلوب المثالي، وهو التجاهل، الكل مهتمٌّ ويبذل الغالي والرخيص لنيل رضاها، إذن سأكون المختلف، هي التي ستبحث عني في كل مكان، وتسأل موج البحر وفيروز الشطآن، منافسي الأخطر هو أستاذنا المثقف المحفلط كتير الكلام، الأستاذ (أنس)، الذي يتكلم عن كل شيء، ويعرف كل شيء، يتكلم عن الاشتراكية الثورية، وعن العدد الذري لذرة الماغنسيوم، ولون أنثى ذبابة الفاكهة.. ومذبحة المماليك، وعن ديانة السيخ، والاحتباس الحراري في كوكب الزهرة،

موسوعة تمشي على قدمين، أسطورة حية، لا بد من قتله.. الكل يرسم ابتسامات بلْهاء، وعيون تحمل حبًّا ووعدا بالجنة، جاءتني تمشى الهوينى كما يمشي الوجي الوحل، وقالت بصوت ملائكي: استاذ (خالد). ما أجمل اسمي!، تكمل جريمتها قائلة: لو سمحت ملف الاستاذ (دسوقي). موسيقى إنها لا تتكلم إنها تعزف، أعطيتها الملف ويداي ترتعشان!

قالت بدلع: ما لك يا استاذ (خالد)؟

قلت: لا شيء.. مرهق.

قالت وهي تمسك بالملف وتمس يدي فيسري في جسدي تيار كهربي بآلاف الفولتات رأيت جنانا وسموات وألوانا: لابد أن تستريح. عدت للأرض أحاول أن أجمع ما تبقى من أعصابي، أغرق في عينيها العسليتين، لم يمضِ إلا أيام قليلة وتم إعلان خطبتها على (عم إسماعيل) المنتهي الصلاحية، لقد ورث هذا العجوز ثروة تقدر بالملايين من قريب له، كان يعيش في البلاد البعيدة البعيدة، كان يومًا صعبا، وأنا أراها بجانب (عم إسماعيل)، تتمايل على أنغام الموسيقى الصاخبة، والأصعب أن أرى (عم إسماعيل) يرقص على أغنية آه لو لعبت يا زهر، كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، استقلت رغم أن المدير قد وعدني أنه سيخفف من نكاته يومي الأحد والأربعاء، لكني رفضت هذا العرض المغري، وعدت إلى البيت محملًا بالأوراق البيضاء وبعض الأقلام.. سأحقق أمنيتي، وأؤلف كتابا، أشعلت سيجارة، وسحبت نفسًا عميقا وأطلقت سحبًا من الدخان، لعلها تمطر أفكارا، وتنبت كلمات على هذا الورق الأبيض، كم أكره هذا اللون!

(رسالة)

هل للحياة معنى؟ وهل نحن أحياء أو نتظاهر أننا كذلك؟ هل ما نعيشه ونقاسيه هو دورٌ مكتوب لكل منا ونحن لا نخرج عن النص أو هو صنيعة أيدينا؟ هل لنا الاختيار أو نسير على طريق مرسوم والنهاية معلومة وحتمية؟ هل كل ما سيحدث قد حدث؟ كرو اية كتبت وطبعت ولكن القارئ لم ينته من قراءتها بعد ولا يعلم النهاية مع أنها بين يديه أو نحن من نصنع أقدارنا أو نعتقد ذلك؟ هل تحدي القدر هو تنفيذ لمشيئة القدر؟ ألقي نظرة على المسدس الذي سأنهي به حياتي وأتحسس ملمسه البارد كالموت هو من سيقول الكلمة الأخيرة هل للموت رائحة؟ هل الموت فناء؟ أو بعد الموت أعود مرة أخرى في دور آخر؟ دائرة لا تنتهي ندور فيها من صورة إلى أخرى.. أمسك المسدس بيد تتعرق وأصوب فوهته إلى جبهتي وداعًا أيتها الحياة أو إلى لقاء قريب.. أضغط على الزناد ببطء ثم تك تك... لم أمت، الرصاصة لم تخرج.. أنفاسي تتصارع أعاود المحاولة طرقات على الباب لماذا أهتم بتلك الطرقات فلأمت واللعنة. على كل شيء.. لماذا في هذا التوقيت السينمائي تأتي تلك الطرقات؟ أضع المسدس جانبا و أتجه إلى الباب و أفتحه... لا أثر لأحد سوى إضاءة خافتة من مصباح بدأت إضاءته ترتعش، وكأنها تحاول البوح عن شيء ما وقبل أن أغلق الباب، أرى ورقة مطوية يتضوع منها رائحة الشر تمتد يدي المرتعشة إلى قدر على هيئة ورقة، أشعر بملمسها فأنتفض.. أنسحب بسرعة إلى الداخل.. هل أكمل عملي وأغادر المسرح و أنهي دوري؟ ولكنه الفضول، مكتوب بخط أحمر وكأنه الدم: لم يحن موعدك بعد. تقع الورقة من يدي.

تلك الكلمات محفورة في ذاكرتي، منقوشة على جدراني إنها آخر كلماته إلي... أعود بالزمن وأراني طفلا صغيرا يرتجف أمام أبيه والرعب يطل من عينيه، وهو ينظر بطرف خفي إلى جثة أمه بجانب المكتب وبجانبها تمثال لبوذا ملطخٌ بالدماء.. يضحك أبوه بجنون قائلا: لقد قتلها بوذا.. الجنون يسيطر على كلماته وحركاته.. تمتد يده إلى سطح المكتب ويمسك مسدسا ويوجهه إلى رأسي.. لحظات ثم يبعده قائلا: موعدك لم يحن بعد. ويفجر رأسه برصاصة قاتلة.. أعود إلى وعي.. أنتفض.. أُمسك المسدس وأنفاسي تتصارع وأصوبه نحو رأسي وأضغط على الزناد وتك وأضغط مرة أخرى تك تك.. يبدو أنني ملعون بلعنة ما.. ليس هناك راحة دائما ما أعيش مأساة.. حتى قرار موتي مرتبط بقوة خفية لا أعلمها... هي التي سوف تحدد متى سأموت.. هناك رسالة أرسلها شخص ما.. ليس هناك موت إلا بموعد.. عندما تنتهي منك الحياة ألقي جسدي على الفراش لعلي أغرق في غيبوبة لا أقوم منها أبدا!

ألقيت القلم منشغلا بتلك الشخصية، وكمية الكآبة والياس التي تجريان في شرايينها مجرى الدم.. كيف أصنع من مداد الحبر ألمًا ووجعًا لا يوصف؟ لماذا لا أمنحه حياة أخرى ينعم بحنان الأم وعطف الأبوة وينشأ نشأة مستقيمة؟ ولكن هيهات أن تصنع قصة جيدة من الحياة الوردية.. لا بد من مأساة تحترق فيها الأحاسيس والمشاعر ومن رمادها تصبغ الشخصيات، فالحبر الأسود لا يرسم قوس قزح كما قال خطاط عراقي شهير لا يرسم، إلا حزنًا ووجوها خط الدهر بحروفه على ملامحها فأكسبها ألمًا ويأسًا وهزيمة.. لماذا أحزن عليه هكذا وكأنني أعرفه؟ وكأنه مني؟ ما هي إلا سطور كتبتها،

فأصبحت الكلمات لحمًا ودما ووجعا ألمسه بروحي.. سأدعه ينام الآن لعل النوم يمنحه بعض الراحة!

جرس الباب يرن.. خوفٌ مبهمٌ يقشعر له بدني.. أخطو ناحية الباب في صمت.. بصوت مرتعش أقول: من بالباب؟ الصمت هو الجواب.. أكرّر السؤال ولا مجيب.. لا مهرب من القدر.. أفتح الباب ببطء فيطالعني وجه مألوف وهو يصوب المسدس إليّ.. إنه هو بطل قصتي بملامحه الحادة وعينيه النافذة.. لم يتكلم ولكنه ضغط الزناد وكان هذا آخر عهدي بالدنيا!

(قرأت في دفتر جدي)

اتخذتُ مجلسي على المقهى مع أصدقاء العمر، كلنا تجاوز الستين، متعتنا أحاديث الماضي وذكرياتنا نراها رؤيا العين، وكأنها بالأمس القريب، نتذكر سعد باشا وثورة ١٩ وزواج الملك فاروق من فريدة، وصوت ليلى مراد وأسمهان وعبد الوهاب وأم كلثوم وعبد المطلب يغني شفت حبيبي وفرحت معاه.. دا الوصل جميل حلو يا ماحلاه.. شوفت حبيبي. نقتل الوقت بالضحكات ولعب الطاولة والدمينو وشرب الشاي، و أتذكر فجأة كلماتها: لا تتأخر. أعود إلى البيت أبحث عنها.. لا أجدها.. أبكي عندما أتذكر أنها ماتت منذ سنين!

(طائر النَّوْرس)

كانت دائما ما ترغمني أمي أن أضع يدي على أذني، عندما يعلو صوت أبي غاضبا، فتبدأ هي بالصراخ والبكاء، كنت أُطيعها، ولكنه كان يتسرَّب من بين أصابعي الموضوعة على أذني كلمات لا أفهم معظمها.

صوت أبي: أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثين!

صوت أمي: لا.. أنت تعرف.. كل يوم أشم رائحة الخيانة في ملابسك.. أتساءل ما هي الخيانة؟ وهل للخيانة رائحة، يعلو صوت أبي، فاضغط على أذني، فأسمع صوت البحر ينادي، فأغلق عيني لأرى طيور النَّوْرس، وهي تطير وسط قطع السحاب الأبيض.

كانت أمي تمسح على شعري، فينتشر شذى عطرها يغمرني وهي تحكى لي عن السندباد، ورحلاته الأسطورية، كم تخيلت نفسي أبحر في سفينتي، أفتش عن اللؤلؤ، وعن جزائر المرجان، وجبال الفضة، وأرض الذهب، وأطارد الأحلام، وأدخل كهوف الحكايا، أفتّش عن أميرتي، وحكايتي الشخصية.، أمي كانت تحكي لي، فأرى أشجار الجهنمية الحمراء والبيضاء تتضفر كجديلةٍ على ظهر أميرةٍ أندلسية، كنت صغيرا، وجسدي هزيلٌ كقشة لكن صوتها الساحر نفخ في روح فارس، يمتطي جوادا مجنّحا، يسابق قوس قُزَح، لمعرفة سرِّ الألوان، كانت لا تمل من الحكي، وكنت لا أمل من الحياة، كان هذا هو عالمي السحري، أعيش مع حوريات البحر، أجمع الأصداف، وأطارد الأسماك الملونة، وأنقش اسمي على بقايا حطام السفن الغارقة،

طفلا كنت، وما زلت، أبحث عن الخيال، وعن صوت أمي، كانوا يقولون لي في مدرستي: إن الصوت طاقة، فهل تتحول الطاقة إلى حياة كما أراها، الكلمات تتجسد أمامي في حقيقتها الكاملة، شكلًا ورسمًا وحياة، أراها على الجدران، وفي خيوط النور، وحتى في الظلام، أراهم وأسمع حديثهم، أصبحوا أصدقاء لي، يأنسون بي، و أفرح بهم، كنت أذهب إلى المدرسة، وأعود مسرعًا لرؤيتهم، واللعب معهم، وسماع حكاياهم التي لا تنتهي، كانوا هم أصدقائي وسرّي الصغير، الذي لا يشاركني فيه أحد، سقطت قطرات الندى على وجهي، فصحوت لأجد أمي تبكي، وتنظر إلي في حنان.

قلت منزعجا: لماذا تبكين يا أمي؟

قالت وهي تمسح بيديها صنيعة عينيها: لأني أحبك يا صغيري!

لم أفهم حينها العلاقة بين الحب والدموع.

قالت لي وهي تبتسم: سأحكي لك اليوم قصة عن ابني آوى كليلة ودمنة.. أراهما يتقافزان على الحائط قائلين: أخيرا ستحكي عنا!

لم تعرهما أمي اهتماما قائلة: كان في قديم الزمان غابة كثيفة الشجر و... سمعنا باب الشقة يفتح، وخطوات ثقيلة تئنّ لها أرضية الصالة الخشبية، إنها خطوات أبي، توقفت أمي عن الحكي، نظرت إليّ وصمتها يقول: لا تخرج من غرفتك، وتركتني وغادرت الغرفة، ولكن بقي عطرها، وبقايا حكاية لم تكتمل.. صحوت من نومي، لأجد وجه أبي يتأملني بعينين جامدتين، بعينين من زجاج.

قلت: أين أمي؟ لم يلتفت لكلماتي، وكأنه لم يسمعها.

(نسيان)

هذه هي حياتي.. مجموعة من الأخطاء الصغيرة ولكنها كفيلة بتغير مجرى النهر و أنا ما زلت أحدث نفسي.. إذ بصبري الفاكهي يلقي أمامي دلوا من الماء، ويبرطم في سخط.. قسمات وجهه لوحة سيريالية عن جحيم دانتي.. يبدو أنه كان ساخطًا لأنه أخطأني.. اعتذرت له ووعدته في المرة القادمة أني لن أتحرك حتى أنال بركته فأشرق وجهه، وبدأ ينادي على فاكهته التي تعافها الأنفس.. أعود إلى نفسي فلا أتذكر في ماذا كنت أفكر!

(الجبل)

كان صعود الجبل شاقًّا، انتشر الفساد في البر والبحر، قريتنا لم تعد هذه القرية القديمة، شاع بها كل أنواعِ الموبقات، ولم يعد هناك خيرٌ في أهلها، حتى الصغار شاهت براءتهم، وطبعوا على خبثِ آبائهم، لم يعد هناك أمامي إلا النجاة بنفسي، الجبل في الليل تنينٌ خرافيٌّ يقبع في صمت، أصوات الحشرات تدوي، وشهاب يهوي من السماء، أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، كان صعود الجبل شاقًّا على كهل مثلي، ولكن ما باليد حيلة، سأصل إلى الكهف الذي تعبد فيه جدي، وأغرق في النور المقدس لأغسل ((خطاياي، و أتعبد حتى يأتيني اليقين بعيدًا عن قرية الظلم، الطريق طويل، أتوقف لحظات لأرتشف بعض قطرات الماء، وأواصل الصعود لولا أن رأيت نارا، اقتربت لأجد شيخًا طاعنًا في السن اشتعل الرأس منه شيبا.

قلت: السلام عليكم.

قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

سألني عن وجهتي.

قلت: وجهتي إلى الله.

قال وهو ينظر في عيني:

إذا كان وجهتك إلى الله حقا فليس هذا هو الطريق.

قلت: و أين هو الطريق؟

أشار بأصبعه ناحية قريتي الظالم أهلها!

(وظيفة)

دائما ما أسير متوترًا خائفًا حتى من خيالات البشر، أركز نظري على الأرض وكأنني أقرأ كتابًا كلماته من الحصى، و أفرّ من الناس وكأنهم مصابون بالطاعون، فنظرات الناس هي الجحيم الذي أعذب وأشقى فيه.. أقف أمام مقر الشركة المصرية للاستيراد والتصدير وكأنها حيوانٌ خرافي.. أجفف عرقي وخوفي و أبتلع ريقي الجاف-يبدو أن تمرينات اليوجا لم تؤت ثمارها- آخذ نفسًا عميقا.. أجتاز البوابة وأصعد السلم فأنا لستُ من هواة المصاعد.. الحقيقة إنني أخاف الأماكن المغلقة، سبعة أدوار أفكر في كل شيءٍ، أتمتم بكلمات سأقولها أتحسس قميصي المكوي.. و أتمتم بآية الكرسي وأرسم ابتسامة ليس لها معنى.. تطلعت إلى الباب ودخلت لأشعر بجو بارد منعش آت من جهاز التكيف، وقفت أمام سكرتيرة حسناء تشع عطرًا ونورًا أعتقد أنني تكلمت وسمعتها تقول بابتسامة متألقة وكأنها تزف إلي خبرًا سعيدًا: لم تعد هناك وظائف خالية. لماذا استرحت؟ لا أعلم.

أجلس مع صديقي الوحيد في ذلك المقهى، والأصوات تختلط في سيمفونية صاخبة

أصوات الرواد مع كركرة الشيشة، وزهر الطاولة، وأحجار الدومينو وهي تصطدم بالتربيزات الخشبية.. الدخان ينتشر في المكان ويغلفه بجو ضبابي غامض، وصوت قادم من التلفاز لرجلين يجلدان بعضهما البعض بكلمات كالسياط.. خائن.. عميل!

التفت لصديقي: ما رأيك في ما يحدث؟ قال وهو يفرك إحدى أذنيه كعادته: بعد الثورات لا بد أن تحدث فوضى عارمة، هذا شيء طبيعي ولكن لا بد أن تتكاتف كل القوى الوطنية لتنظيم وترتيب مصر!

قلت: المشكلة إن كل من يتكلم يعتقد أن لديه الحل السحريّ، لكل أمراض الوطن وبرشفة واحدة تتحول مصر إلى حلوة الحلوات.

وأشرت إلى التلفاز وقد حمى الوطيس بين الضيفين، وبدأ كل منهما يقضم أذن الآخر.. الكل يبحث عن مصالح شخصية وحزبية ولا أحد يفكر في مصر.. مصر تحتاج لمن له رؤية، قال صديقي: الرؤية الآن غير واضحة، دعنا من السياسة وحدثني ماذا فعلت؟ هززت رأسي وقلت: كالعادة. نظر إلي مشجعًا: لا تهتم غداً أفضل إن شاء الله.

قلت باستنكار: متى؟ الأيام تمر دون أن أرى أملا يلوح في الأفق.. الأيام تلوَّنت بلون قاتمٍ، كلما تلاقت عيني بعين أبي أفرُّ هربًا كيف أواجهه؟ ست سنوات سوداء أبحث فيها عن عمل.. كل الطرق مسدودة. في تلك اللحظة ارتفع صراخ بجانبنا ووقف شابان يمسك كل واحد منهما برقبة الآخر!

يا علماني يا كافر تيـــــــــت!

يا جاهل يا متخلف يا ابن... تيـــــــــت!

(سارة)

أجلس متكومًا في أحد أركان الغرفة الرطبة، أتطلع إلى أوراق رو ايتي المبعثرة على الأرضية، اختلطت الحروف والكلمات والمشاهد في عبثية النهاية تسبق البداية، شخوصي على الورق تائهةٌ تبحث عن المعنى وتسأل عن السبيل، و أنا على حافة اليأس أرقب السفن الغارقة في أعماق المحيط.. هذيان.. كل ما نراه هذيان.. لسنا حقيقة.. من المستحيل أن نكون حقيقة.. إننا جحيمٌ لعالم آخر! من قالها؟ لا أتذكر ولكنها الحقيقة.. أفتح باب الشرفة و أقف على حافتها متطلعًا إلى أسفل تيار من البشر.. أسراب نملٍ تبحث عن الغذاء لا عن شيء آخر.. ماتت أرواحهم.. باعوها من أجل رغيف خبز.. فهل هناك ما يستحق البقاء؟ كدتُ أُلقي بنفسي، ولكن هناك شيء ما جذبني لداخل الغرفة مرةً أخرى.. إنها بطلة رو ايتي (سارة) كما تصورتها.. عيناها الواسعتان و ابتسامتها البريئة.. قالت: أنت لن تنتحر.. لم يحن موعدك بعد! واختفت وتركت بقايا عطر وشيئا من أمل!

(صديقي)

اسمي (مروان) أعمل محاسبًا في الشركة المصرية للاستيراد والتصدير، مع أني أكره الأرقام وليس بيني وبينها أي نوع من الكيمياء، ولكنه القدر ومكتب التنسيق هما ما دفعاني دفعًا إلى كلية التجارة التي لم آلفها ولم تألفني، حتى أنني في بعض المحاضرات كنت أحسبني معاقًا ذهنيًّا فكنت أرى أنني الوحيد الذي لا يفهم تلك الطلاسم والتعاويذ، الذي يلقيها علينا الساحر الدكتور الأستاذ (محذوف الاسم) كنت أريد أن أصبح مهندسًا في البرمجيات، أن أصمم لعبة ما ذات أجواء أسطورية تغزو العالم، ولكنه حلم وانتهى ودفن في مقبرة النسيان، الآن أنا أسعى خلف الأرقام ولقمة العيش!

أبدأ يومي كالمعتاد.. شرب كمية قهوة كفيلة لإيقاظ فيل.. أتابع على عجل صفحتي على الفيس بوك وأتابع بشغف أخبار فريقي المفضل ريال مدريد الملكي، إنه يعيش أحلى عصوره مع زيدان.. أُطعم سمكاتي الملونة.. هواية منذ الصغر حتى أنني أطلقت عليهم بعض الأسماء "جلفدان هانم" و"عصمت بيه".. ألقي التحية على صورة زفاف أبي وأمي.. صباح الخير ماذا تصنعون في العالم الآخر؟ هل ما زلتم تتحدثون عن مصروف البيت وإيجار الشقة وكسوة الشتاء؟ لقد غادرتم واسترحتم أما أنا فما زلت مطحونًا في هذه الحياة فإلى لقاء قريب!

أرتدي ملابسي.. قميصي الأزرق السماوي وبنطلوني الجنيز الأزرق، وأخرج مسرعًا فلقد تأخرتُ عن مواعيد العمل الرسمية، أسلِّم على (فخري البواب) الذي دائما ما أراه نائما ولا يرد السلام.. أبتسم لتذكري أن عمارتنا

تمت سرقتها ثلاث مرات وكان (عم فخري) يؤدي هو ايته الوحيدة وهي النوم ولولا العشرة القديمة بين (عم فخري) وصاحب العمارة وبلوغه سن السبعين، لكان هناك آخر يرد علي السلام.. أستقل سيارتي الفيات ١٢٨ وهي ما تركه لي ابي..

ما زلت محتفظًا بمشغل الكاسيت القديم وبعض الشرائط الاستيريو.. أضع شريط حبيبي لعمرو دياب تبدأ الأغنية: حبيبي يا مالك قلبي في الهوى.. اردد خدني معاك خدني خدني للهوى للهوى.. حبيبي. أصل إلى مقر الشركة و أنا أردّد مع أغنية أخرى: مستغرب ليه اني اسيبك.. أصعد في الأسانسير.. ألقي السلام بآلية على كل من أقابله.. أتوجه لمكتبي!

ها هو (علي) صديقى الوحيد في الشركة وخارج الشركة.. إنه صديقي من أيام الجامعة.. صديقي اللدود بحمقه وغبائه وطيبته، أين يمكن تجد صديقًا أحمق وغبيا في هذه الأيام؟!

أتذكر أن أكثر مشاكلي أيام الجامعة بسبب الدفاع عن هذا الأحمق، الذي دائما ما كان يتسبب في أن أضرب في الأسبوع مرتين، على الأقل.. دائما ما كان يختلق المشاكل مع الشبان مفتولي العضلات تلك المخلوقات التي تتغذى على عناصر الحديد والكوبلت والنيكل.. يأكلون أي شيء معدني.. ولكن الحمد لله تخرجنا في الجامعة ولم يصبنا أي شيء.. أعتقد أن بصري أصبح ضعيفًا بعض الشيء ولدي مبادئ شلل رعاش وخوف من المرتفعات!

يرتفع صوت (علي) وهو يقول للكابتن (صالح الوحش) زميلنا وصاحب صالة للجيم: إنت قليل الأدب ولازم تنضرب! أبتسم وأستعد للضرب!

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017